عصر واوا

بقلم

فؤاد قنديل

(١)

الجسد الممدد على السرير ساكن تمامًا. لا تدب فيه أية حركـــة ... يسيطر عليه سكون لا يدانيه إلا سكون النهاية ... حوله الأهل معلقون بالانتظار والأمل ... يتمنون لحظة تصل فيها إليه ... قطرة من وعي.

بدا كل شيء كأنه ينتظر هذه اللحظة ، حتى الصمت نفســـه كـــان يترقب لحظة انبثاق الحياة من الموت.

طمأنهم الطبيب على صحة شريف ... لا يـــزال حيـــا .. النـــبض ضعيف، لكنه سيتحسن بعد أن يفيق ويبدأ في تنفيـــذ برنـــامج غـــذائي مكثف ... منعهم من الدخول عليه.

وقف لهم العسكري بسلاحه ليحرس الأوامر الواضحة والحاسمة.. ممنوع الاقتراب من باب غرفة المصاب إلا بإذن النيابة.

ذهب منير البدري إلى الطبيب النوبتجي ... طالبا الدخول ، فسمح له بوصفه صحفيا ومعه دخل عبد الرحمن شمعة ... سعى فريق آخـــر للنقيب سليمان الملط ... ليسمح لهم برؤيته.

إلى قلوبهم تسلل الملل والخوف ... خرجوا إلى الردهـــة يرتقـــون ثوب الانتظار .... مضت الساعات دون جديد .... أخذت ناسا معهـــا وجاء آخرون.

في منتصف الليل تقريبا تململـــل الجســـد .... وصـــلت كهربـــاء الحياة ..فتح عينيه وأغمضهما..عـــاد ففتحهمـــا .... ابتســـم الجميـــع واستعدت القلوب للفرحة بتمام النجاة .... أطال شريف النظر في كـــل

الوجوه المبتسمة والشفاه التي تتمتم بحمد الله .... نبتت في عينيه أسئلة حول سبب الابتسام وسر هذا التجمع.

شرعوا تدريجيا يتحركون ويتقاربون .... يتداخلون في اتجاهه .... تنضم الأكتاف إلى الأكتاف .... تلتصق الأجساد كلها قريبة من الوجه الذي يحتاج إلى تحديق وتأمل للتعرف عليه .... كان وجها آخــر .... ذقنا طويلة وبشرة كالحديد الصدئ وعينين ليستا غير بحيرتين من غمام أسود وذهول ، شفتين شاحبتين .... ملامح مكدودة وذبول .... تأكـد الجميع أنه آخر من تبقى من أهل الكهف.

لعله كان وجها آخر لنفس الشخص .... وربمــا أصــبح شخصــا آخر .... لا أحد يعرف ما الذي جرى ؟ وهو الآن بنظراتــه المحلقــة التي لا تكف عن الدوران تحاول استطلاع الأشياء والجدران والمكان ، يبدو كأنه غاب عن الدنيا وزمانها دهرا لا أحد يدري مداه ، وهو .... مثلهم لا يعرف ما الــذي جــرى ، اســتقرت نظرتــه أخيــرًا علــى الوجوه .... وبدأت في التعامل معها ، كان كل من يحس انه ينظر إليه يبتسم له ابتسامة كأنه سيلتقط له صورة ، ولعله كان يريــد مســاعدته على معرفته بسهولة .... هذا .... عم فريد السخن والد سلوى ، لابــد أنه هو ، ولكن ما الذي جرى له ؟ لقد فقدت بلونة جسمه الكثيــر .... وهذا حسين قربة بائع العصير وهذه .... من هذه .... ؟ آه .... أختي أليفة .... لم أرها منذ زمن .... لقد سمنت واختفــى ســعداها داخــل مواسير الذهب .... ابتسمت أولاً ثم انفرطت في البكــاء .... كانــت المسافة بينها وبين صدره بعيدة فسقطت عند ركبتيه واهتز السرير ومن عليه تحت وقع نشيجها العالي الذي كان تغترفه من آبار عميقة ونادمة.

بدا جامدا تماما وهو ينظر إليها بعينين تتساءلان عن سر البكـــاء ، تقول بأسى حاد : سلامتك يا با .... ألف سلامة عليـــك يـــا حبيبـــي ، وسرعان ما انتقلت العدوى إلى ثلاثة من الشباب فانهاروا فوق بعض وعلا نحيبهم. أعطى هذا فرصة لأليفة كي تعود للنشـــيج العاصـــف ، حريصة على الاحتفاظ بمكانتها بوصفها أول من افتتح البكاء.

تحول شريف إلى الشباب محاولا التعرف عليهم. تصور في البداية أنهم لابد أولاد أليفة. ولكنهم كانوا صغارا جدا قبل شـــهر .... وأكبـــر أبنائها بنات هن الآن في سن الزواج.

قال لها منير البدري في عتاب حاد :

– الواجب أن تزغردي يا حاجة أليفة لا أن تقلبيها مناحة.

تحول إليه شريف .... تمالكت نفسها رائدة البكاء وقالت :

– هذا أبي يا أستاذ منير وليس أخي.

– قال منير : وها هو أبوك بخير.

رفعت رأسها قائلة : احمدك يا رب وأشكر فضلك.

وهذا أعرفه .... إنه الأستاذ ملاك مدرس الإنجليزي ، أما الذي إلى جواره .... الذي إلى جواره .... لا أعرفه .... أظننـــي رأيتـــه مـــن قبل .... بقى طويلا يحدق فيه دون أن يساعده صـــاحب الوجـــه .... هاتان العينان العميقتان السوداوان والجبهة العريضة لا أنساها أبدًا .... لابد أني أعرفه ، أغمض عينيه .... كاد يغيب عن الوعي ، وبدا أنـــه بذل جهدا كبيرا لكي يتعرف على المحيطين بالفراش .... حـــين فـــتح عينيه انتقل بهما إلى شخص آخر .... لم يكن عسيرا عليه .... كـــان زيه الرسمي وشاربه يعلنان له أنه النقيب سليمان الملط. لكـــن شـــاربه

الكث تضخم. وأصبح شجرة هائلة تغطي نصف وجهه وتمتد فروعها خارجه ، طاف بوجهه شبح ابتسامة .... قال له الضابط ....

– ما رأيك فيه الآن .... أكبر شارب في مصر.

ظهرت الابتسامة على وجه شريف وهز رأسه .... فاستطرد سليمان :

– يكلفني شهريا ما يزيد على أربعين جنيها.

هربت الابتسامة الوليدة .... وحاول سليمان أن يعيدها فقال له :

– سوف تأتي معي إلى اسكتلندا في الصيف .... هناك مسابقة عالمية للشوارب. سوف أمثل مصر .... لن تكون لك حجة .... سيأتي معنا وفد رسمي .... وسوف يكون منير البدري معنا .... هيا .... استعد .... الأجانب الذين رأوه يؤكدون أني سأعود بالجائزة الأولى بصفتي صاحب أكبر شارب في العالم.

عادت الابتسامة إلى الوجه المعتم ، ورضي الجميع عن حديث سليمان فاستأنف عزفه المنفرد.

– لا يمكنك أن تتصور ما هي الجائزة.

نظر البعض إلى المستمع المسكين ، على أمل أن يرد ، لكنه كان ينتظر ....

فقال سليمان :

– شارب من الذهب الخالص بحجم شاربي.

اندفع منير يسأله :

– في حجمه أم في وزنه.

ضحك الجميع حتى أليفة والشباب الأخضر .... نظروا إلى شريف الذي كان ينتزع ابتسامة من بين أعصاب محطمة وروح غائبة .... تذكر سليمان أن "واوا" هرب من السجن وكاد يقول لشريف لكنه أدرك بسرعة أن الخبر كفيل بالقضاء عليه. لحق بلسانه المندفع في آخر لحظة.

انتقلت عينا شريف إلى شاب طويل ورشيق ، مضيء الوجه والعينين بالصبا والحيوية .... لم يعرفه .... تحول إلى الشاب التالي .... لم يعرفه فانتقل إلى الثالث .... كان فتى قصيرًا نسبيًا .... تأمله ووقف عند الشامة الكبيرة التي تستقر على جانب ذقنه الأيسر .... وحين وقعت عيناه على نصف رأسه الأبيض تذكر الشباب الثلاثة دفعة واحدة ، وراح ينقل نظراته بينهم – هذا تامر وطارق وهشام .... إنهم تلاميذي .... ولا يزال السؤال يفتش عن إجابة .... لماذا يغزو المشيب بكل جحافله شعر تامر .... الشيب مسحوق الزمن المعتق.

قال تامر الذي لم يبدأ اللعب مع الزمن بعد :

– حصل حضرة الناظر على موافقة الوزارة على رحلة السد العالي ياأستاذ.

ابتسم شريف بدرجة يمكن أن تترجم في الأحوال العادية إلى قهقهة ، وهز رأسه سعيدًا .... واستطرد تامر :

– شد حيلك كي تراه معنا ونزور بحيرة ناصر "وأبو سمبل" ، قال منير :

– رغم كل ما تدخره من خيرات ، فلا يزال هناك مــن يحــرص على عدم الاستفادة منها ....

وصلت الممرضة وهنأته بالسلامة وجاء الطبيب واخترق الســور البشري .... وضع يده على رأس شريف وهو يهنئــه بالســلامة .... جس النبض ومط شفتيه .... لم تمض لحظات حتــى وصــل وكيــل النيابة .... دخل العسكري وهمس في أذن الجميع ، خرجوا مــا عــدا الضابط وبدأ التحقيق مع شريف بعد أن أصبح وحيدًا.

شرد .... راح عقله المجهد يدور بسرعة كعجلات سيارة تغــوص في الوحل .... تدور بلا جدوى .... أشياء كثيــرة حــدثت لكنــه لا يستطيع أن يحددها بوضوح أو يرتبها .... كلها وقعت فــوق بعضــها كبيت منهار .... تداعى فجأة وتداخلت طوابقه ولم يعــد هنــاك مــن يستطيع تمييز طابق عن طابق .... بدت له بعض الأحداث كأنها لــم تحدث وأنها كانت من بنات أحلامه ، وبعضها يبدو كما لو كان مجرد أفكار سوداء وكوابيس يقظة. أو أوهام وبعضها بالطبع حدث .... لــم يجد في ذهنه القدرة على أن يخلص هذه من تلك ؟ فهل يلقي كل ما في سلته أمام وكيل النيابة ؟ لو فعل ذلك لأمر وكيل النيابة بإيداعه مستشفى الأمراض العقلية على الفور ومضاعفة الحراسة عليه.

ما الذي حدث ؟.... ما الذي يحدث ؟.... وما الذي يمكن أن يحدث ؟ ولماذا جاء هنا وكيل النيابة ؟ وماذا يريد ؟

ابتسم في مرارة .... لقد أصبح هو نفسه وكيلاً للنيابة ، يحقق مــع نفسه تحقيقا شخصيا آخر .... تحقيق ما قبل التحقيق.

أريحوا أنفسكم .... أنا لا أستطيع أن أجيب لا على هذا ولا على ذاك .... أغمض عينيه .... لاحظ الطبيب ذلك ، فأمسك برسغه وقاس نبضه .... طلب من الممرضة أن تركب له الجلوكوز بسرعة وتطلب له طعاما مسلوقا وساخنا.

فتح شريف عينيه وتنهد .... نطق بعض الحروف التي تعني أنه لا يقدر على الكلام .... كان واضحا أنه يلتقط أنفاسه بصعوبة.

طلب الطبيب من وكيل النيابة تأجيل التحقيق إلى الغد حتى يتسنى له استعادة صحته ، والغذاء بالقطع سيساعد على تنشيط ذاكرته.

وافق الوكيل على مضض لأنها المرة الثالثة التي يجيء فيها ، وفي المرة الأخيرة بالذات جاء بعد مكالمة الضابط والطبيب.

خرج الوكيل بعد أن حذر الشرطي من الانشغال عنه لحظة .... وحذره أيضا النقيب سليمان الملط :

– هناك عصابة سوف تقتل المصاب.

أجابه العسكري كأنه في حصة مطالعة :

– لا تشغل بالك يا فندم .... لو كانت عصبة الأمم كلها لن يلمسوا شعره في رأسه.

وسرعان ما قال العسكري لنفسه : نهار أغبر عصابة مرة واحدة .... الله يسامحه الذي كان السبب.

بعد أن خرج الجميع فوجئ شريف بوجه أحد الذين زاروه ولم يعرفه يرتسم أمامه .... حدق في عينيه وسرعان ما عثر على شخصية صاحبه .... إنه عبد الرحمن شمعة زميله مدرس العلوم ولكنه بدون لحية .... كيف لم يعرفه وهو الصديق العزيز لمجرد أن حلق

لحيته .... لقد كان دائما إلى جواره دون أن يدعوه وكان نعم المــؤنس والمعين .... لطالما وجد لديه راحته وأمنه وثقته في الله وفي الناس.

* * *

(٢)

حاول أن يعرف مكانهم لينتقم ، ولكنه للأسف ذهب معصوب العينين وعاد جريا في الظلام يضرب في بيداء صخرية متسقة مع كل شيء .... تعثر في نتواءاتها عدة مرات .... إلا أنه كان ينهض بحثا عن أي ابتعاد أو أي حياة غير حياة هم فيها .... ظل معلقا بأرجوحة وعيه لحظات إلى أن تمزقت الخيوط الواهنة فسقط في مستنقع الغياب قريبا من تخوم النهاية.

ألحت عليه أخته كي تبقى معه ، لكنه أبى .... كان يعرف أنها أصبحت هي المسئولة عن محل العطارة ، بعد أن توسعت تجارة زوجها نجيب فرح وأصبح مضطرا لمتابعة صفقاته مع عملائه في السعودية واليمن وتونس والمغرب.

كان يريد أن يكون وحيدا في بيته الذي غاب عنه أسبوعًا كاملاً ولابد أن يستمتع بهذه الحرية اليتيمة .... وهو يتمرغ في رماد الذكريات كحمار لا يقدر على حك ظهره .... كان عليه أن يكون وحيدا بعمق غير عادي حتى تتأكد قناعته بأنه تخلص من هذا العالم.

– تركت لك الطعام في المطبخ .... أرجوك أن تهتم بصحتك .... لن ينفعك في الدنيا غيرها.

هز رأسه واعدا أن يفعل.

أسرعت إلى محل العطارة الذي يجاور سبيل أم عباس .... المحل الصغير الذي بدأ زوجها منه – بعد أن ورثه عن والده – رحلة حياته التجارية .... انطلق الحاج نجيب .... موهوبا في عالم التجارة حتى لم

يعد يعرف أحدًا ولا يفرغ لشيء ولا حتى لبيته .... وكان على أليفة أن تتخلى عن بيتها وتنزل إلى المحل .... وسرعان ما كشفت هي الأخرى عن مهارة غير عادية في استثمار وقتها وأموالها ، حتى إنها لم تقم بزيارة أخيها في العام الأخير مرة واحدة ، وهو الذي قام بزيارتها منذ شهر.

هز رأسه كأنه يشفق على حالها.

– تغيرت تماما.

استطرد.

– ومن الذي لم يتغير !

أشعل سيجارة ثم تثاءب .... هل بعد كل هذا النوم في المستشفى يتثاءب.. طافت نظراته بما حوله .... ما الذي جرى للبيت ؟

بيته الحبيب .... كل لحظة فيه تجذبه إليها .... كل قطعة أثاث .... كل سنتيمتر من الأرض .... من الجدران .... الصور والذكريات .... كلها تحدق فيه وتستقبله وتسأله وتذكره .... تساعده على أن يتعرف عليها إذا كان قد نسى بفعل ما جرى .... اشتاقت إليه .... إلى نظراته الحانية الوادعة .... كل ما في البيت ينتظر دوره كي يهنأ بنظرة ودية .... بدا على كل شيء أنه جف في غيابه وتشقق .... وحان موعد السقيا واللمس الجميل ....

أخذ أنفاسا عميقة ومتلاحقة من سيجارة تتعجل الانتهاء ، ثم دفنها في المنفضة بعصبية.

كانت سجائره تدفعه أمامها محتضنا أفكاره الباردة .... وتأخذ بيده من ذكرى إلى ذكرى بينما يقبع الزمن في ركن معتم .... تبرق عيناه

ولا تهتز فيه شعرة ككلب ضربه صاحبه بقسوة .... لكنه لم يفكر أبـدًا في الهرب .... مع أنه ليس عاجزا عن الدوران حول الكون كله.

نهض وتمشى صوب صورة كبيرة تجمعه مع أمه وأبيه وعزم على أن ينزل إلى قبرهما في مسقط النور ويقرأ لهما الفاتحة .... تساءل : هل يمكن أن يعود من جديد عهد الآباء .... كان على ثقة أن هذا الجيل بالذات من الآباء الذين ولدوا في الربع الأول من القرن العشرين جيل غير عادي .... في الكفاح والعطاء وتحمل المسئولية .... ثم تحول إلى الصورة الكبيرة التي تتصدر الردهة .... حيث تطل سلوى بملامحها الباسمة. تتألق بالجمال والرضا .... تُقَبِّل بطة صغيرة وفوق صدرها يصعد البط الصغير الأصفر .... يتشبث في الفستان الأحمر بأظافره الطرية .... بعض البطات لا تزال تحت الثديين وبعضها صعد ووقف على الكتفين وشرع يتلفت واثقا من قمته.

الصورة المبتهجة تشع حنانا في الصمت البائس وتقلب ذكرياته.

هذه صورة واحدة من بين آلاف الصور التي التقطها ، لكنها ذات تقدير خاص واهتمام .... هناك الصور التي التقطها لسلوى في الهرم وفي مزرعة الأستاذ مفرح عديله، والتي التقطها في حديقة الأسماك وفي ميدان صلاح الدين هنا أمام المنزل وعلى شاطئ المنتزه بالإسكندرية وفي الأقصر .... صور كثيرة أظهرت معظمها براعته في التصوير ، لكنه في هذه الصورة لم يهتم بالتشكيل في الإضاءة والوقفة والابتسامة ووضع الرأس والخلفية .... كل همه انصب في مادة الصورة .... سلوى الحبيبة وهذا البط الصغير الذي لم يتجاوز عمره أسبوعًا .... تربى في أحضانها وهام بها منذ خرج من

البيض .... حتى أصبح يعرف وقع خطواتها وهي تصعد إليه فوق السطوح وتفتح عشته .... يسرع إليها ويقبل ما يعثر عليه منها.

تنهد شريف وتأمل طويلاً سلواه .... لم ينظر إلى هذه الصور مرة إلا وشعر بالرضا والأمل .... فما هو شعوره الآن بعد ما جرى .... ؟ هل لا زالت قادرة على أن توحي بشيء .... أي شيء ؟؟

تحول إلى الجانب الآخر حيث كانت صورة عبد الناصر الرجل الذي أحبه كما لم يحب إنسانا قط .... مستحيل .... لم يجد الصورة.. غير معقول أن تكون قد سرقت .... دار حول نفسه .... فتش الحجرات ليطمئن على أن شيئا آخر لم يسرق .... كل شيء كان في موضعه .... أعاد التنقيب عن الصورة .... غريبة أن تختفي هذه الصورة التي لا أظن أنها تعني أحدا أم أن هناك خطة لنزعه من قلبي .... وهل نزع الصورة يحقق ذلك ؟.... لقد كان في الصورة منشغلا عن الجميع بعد رحيله بلعب الشطرنج منصرفا بكل فكره وأعصابه إليه .... كم أود الآن أن ألعب دورًا .... لابد أن أجد الصورة .... حان أن تجمعني معه مباراة .... أصبحت مثله وحيدًا في عزلتي أتأمل الناس والأقدار وأحصى الخسائر.

طالت وقفته في حجرة النوم وقد تصور أن هناك من يهمس في أذنه : أنا هنا. أصاخ السمع – أنا هنا .... تحت السرير.

لم يصدق أذنيه ولكنهساير أحلام يقظته التي تتولى شئونه أغلب أيامه الأخيرة .... أطل تحت السرير .... ألفى الصورة والزعيم فيها يفكر في الحركة الصعبة التي يستعد لها ....

تأثر لوضعه .... صحيح البيت بيته وكل موضع يريحه له مطلق الحرية أن يسعى إليه ولكنه ولا شك توجس شرًا فاختبأ .... لابد أنه علم بما فعلوه معي ففضل أن يبتعد عن طريقهم .... تأمله لحظات .... خالجه شعور بالإشفاق .... أعاد الصورة إلى مكانها على الحائط الأيسر من الصالة واطمأن على تثبيتها جيدًا.

كانت سلوى تقول : أحب رجولته وصوته الرنان مع مسحة من شجن وعينيه السوداوين .... نعم .... في عينيه كل الجمال الحسي والمعنوي .... جلس منهمكا على الكرسي وعاد يرنو لسلواه والبط الصغير .... وفجأة هب واقفا.

أسرع خارجا من الشقة وصعد إلى السطح .... فتح باب السطح ولم يخط غير خطوة واحدة ثم تسمر مذهولا بعد أن وقعت نظراته على المشهد الصعب .... الأوز الكبير .... قطع الثلج الفرحان الذي كان يملأ السطح بزغاريده هو الآن جثث .... نهايات صغيرة تعسة مكومة بعضها فوق بعض .... البط الذي كان يتمشى في ثقة ودلال .... ورأسه تسبقه لتتأرجح على عنق رشيق .... هو الآن جثث .... نهايات سوداء مكومة كتلال صغيرة من الظلمة .... الدجاج الذي كان يتقافز فوق الحب ويعتلي الأسوار ويعدو فوق أغصان الرشاقة ويطير ليتعلق بأحبال الغسيل ، ثم يبحث عن موضع عطائه فيتخلص من البيضة التي تثقل مؤخرته ولابد أن تنزل حتى لو في حضرة الملك وعلى كرسي العرش ذاته .... الدجاجات الآن جثث .... وإلى جوارها الديوك كأنها تحرسها حتى في الحياة الأخرى ، انطفأت الألوان الزاهية وخرست الهتافات القلبية المدوية واستسلمت مع صبرها الطويل – للجوع

والظمأ .... هي الآن جثث تتساءل – لماذا جعل الله مصيرها بأيدي البشر ؟ .... لماذا لم تعش في الغابة .... سوف يكون للجوع طعم آخر وسلوك آخر.

تقدم شريف ينقل الخطو بين ضحايا غيابه المفاجئ والأرض مفروشة بالسكاكين وقلبه الذي يمشي عليها ويتمزق .... فتح عشة الأرانب .... طلعت عليه رائحة الموت القديم .... أمسكت به .... وهزته بعنف.

الأرانب الصغيرة البيضاء .... خمسة عشر أرنبا كانت صغيرة وجميلة .... ناعمة الشعر .... خفيفة الحركة .... يسعد اليائس أن يرى فمها المنمنم وهو يأكل في دأب واهتمام .... آه يا خسارة. ثم وقعت عيناه على الأم الكبيرة راقدة وإلى جوارها عشرة أرانب صغيرة .... ليست غير قطع من اللحم الأزرق .... ولدتها وكان يخامرها الأمل أن تنطلق في الحياة مع أخوتها الكبار.

لكن الجميع الآن .... جثث .... نهايات ....

جلس صامتا منكس الرأس .... هل يأسى لمن ماتوا أم يأسى لنفسه؟ .... أم يندم .... أم يفكر في شيء آخر .... لم تصدر عنه حركة .... كان متسقا تماما مع معالم المكان ....

كان واضحا أنه يشعر بالاضطراب لأنه لا يجيد أي طقس من طقوس هذا الاحتفال المتعفن .... بينما كان يعيش آخر يوم في مأساة كاملة دامت نحو شهرين ونصف .... وقد أوشك أن ينهش مودعا القاعة التي عقدت بها جلسة أحزانه الختامية والتي أقيمت على شرفه وحده ، فهو وحده الجدير بحضور مثل هذا الاجتماع البليغ ، بينما هو

يستعد ليرحل عن الاجتماع الذي انتهى دون توصيات إلا وداعا أيتهـا الحياة.

تناهى إلى سمعه رفيف أجنحة ترقص في الفضاء ساعية نحوه، إنه الحمام صديقه الحبيب .... أين كان ساعة اقتحم الجوع والظمأ والغربة أجساد أخواته .... ؟ أين كان حين كانت الطيور مستسلمة للموت الذي اخترمها دون أن يتمهل أو يتصل بذويها .... لعله كان يبحث عن الماء بعد أن نفد من السطح ويحمله بمناقيره كعادتـه ليسـقى أفراخـه .... قطرة .... قطرة .... بالصبر وبحبه وحنانه وطاقته على العطاء .... آن أن يكون للإنسان أجنحة حتى يطير فرارًا من بعض ما يحيق به.

حوله تجمع الحمام كله .... مد إليه يديه وبعض قلبه .... رويـدًا رويدا .... نبت هديل الحمام .... حكى له ما حدث في غيابه ولامـه على النسيان .... تأمل الرقاب البراقة والعيون الصـافية والنظـرات المندهشة والمشي الراقص.

كان قدوم الحمام الآن كفيلاً بأن يضيف إلى الصورة المنطفئة طاقة صغيرة في الركن يتسلل منها شعاع رفيع وشاحب .... ها هنا تعود أن يتمدد على الأرض والحمام فوقـه يرفـرف ، وحواليـه يحـط .... تساءل .... كيف يمكن أن تعود للسطح بهجته ؟. وكيف نزيح عنه هذا الركام ؟ رماد البراءة المحترقة .... نهد وتـذكر مدرسـته وتلاميـذه وشمعة وجماعته .... اشتاق للتلاميذ والرحلة التي وعدهم بها ، جمـع أعضاءه المتناثرة ونهض .... تطلع إلى الأفق الممتـد .... اسـتقبله مسجدا الرفاعي والسلطان حسن ثم تحول إلى القلعـة الشـامخة ....

تأملها بنظرة أسيانة .... فوجئ بقبابها وقــد أصــبحت متغضــنة .... تتسلل الشقوق تحت خوذاتها اللامعة.

عصر اليوم التالي :

ذهب يبحث عن شمعة .... كان مستعدا أن يمضي في أي طريــق يمكنه من الانتقام لا من الباشا ولا واوا .... فلا معنى لهذا الانتقام .... المسألة أكبر وأعمق ....

لابد أن تمتد الأيدي وتلتحم القلوب المحتشدة بالغضب .... لم يجــد شمعة ، أنبأه أحد أصدقائه المقربين أنهم قبضــوا علــى شــمعة فــي الفجر .... مضى على غير هدى .... تحمله قدماه من شــارع إلــى شارع .... يتحدث عن نفسه عازما على البحث عــن شــمعة .... أي شمعة ....

ودائما كانت هناك سلوى .... أمامه وفوق رأسه تطوف به كطائر يحاول أن يسكنه.

ودائما كان هناك شريط أحداث الشهرين الأخيــرين يــدور حولــه ويطعنه .... صورة بعد صورة منذ احتفى بعيد زواجه السابع.

(٣)

صحا من نومه. وجدها قد أدارت الغسالة وجلست أمام التليفزيون تتفرج على برامج الأطفال "مشدودة" إلى أفلام الرسوم المتحركة والحيوانات .... فيلم "العصفورة السحرية" أعقبه فيلم "الأميرة والجوهرة الضائعة" ثم فيلم "الكلبة لولو".

أعدت له قهوته الوحيدة على عجل وهي تخطف النظرات إلى الجهاز العجيب وعروضه الجذابة .... وضعتها أمامه. ثم عادت إلى مقعدها الأثير .... لكنها رجعت إليه فجأة وقبلته قائلة :

– كل سنة وأنت طيب يا حبيبي.

أجابها بنبرات لم تستيقظ بعد : وأنت طيبة.

قالت وهي تبدو في سمت السعادة.

– أرأيت .... أنت الذي تنسى .... اليوم هو ١٤ يناير .... عيد زواجنا. ابتسم وهو يقول – هذا التاريخ فقط هو الذي تذكرين :

انحنت عليه وقبلته من جديد ثم وضعت رأسها فوق رأسه قائلة : كان مفروضا بصفتك مدرس تاريخ ألا تنسى أهم يوم ....

ضحك وهو يكمل لها ما لم تقله :

– في حياة البشرية.

سحب الجريدة التي يحضرها له أشرف ابن حسين قربة صباح كل يوم جمعة ، تعود أن يفتح دكان العصير الذي في أسفل العمارة قبل أبيه فقط في أيام عطلته ، طالعته في قلب الصفحة الأولى صورة رئيس الجمهورية وهو يضحك بملء شدقيه.

ألقى بالصحيفة وذهب إلى الحمام .... اغتسل وأطل في المرآة وأجل الحلاقة للمساء. عاد وأمسك بالصحيفة.

كانت نظراته رغما عنه تهرب من الصحيفة لا إلى التليفزيون المتحمس في عرضه ولكن إلى سلوى التي لا تسطير على عواطفها المرتبطة تماما بقصة خيالية تحكيها الرسوم المتحركة.

كانت فرحة جدا وهي ترى البنت الصغيرة تختبئ من المارد قبيح الوجه وسرعان ما فزعت لأنه عثر عليا وأمسكها كلها بقبضة يد واحدة .... أخذت سلوى تتلوى على كرسيها وقد علت وجهها سحابة حزن عميق حتى إن ملامحها تداخلت من الألم .... كانت تتأوه كلما تلوت البنت في يد العملاق ....

.... ثم بكت البنت وصرخت ، وعندئذ فوجئ شريف بالدموع على خدى سلوى. تسيل في صمت .... ورآها تدنو أكثر من التليفزيون كأنها تريد أن تخفف قبضة المارد على جسم الصغيرة الضعيف .... كاد يبكي من أجلها ثم كاد يضحك .... تحكم أخيرًا في نفسه ، فلم يضحك ولم يبك ، ولم يستطع أن يقرأ الصحيفة ، بقي مختبئا فيها ليرقب ما يجري إلى أن أنعم الله أو مؤلف القصة عليه بأن ظهر فجأة شقيقها الذي كان يبحث عنها ومعه العصا السحرية فلمس به ظهر المارد الذي اضطرب وانبثق منه ضوء شديد ، بينما كان يتلوى ، ثم خمد الضوء وهوى المارد وصفقت سلوى ومسحت بقايا دموعها.

وظهرت المذيعة مضيئة الوجه بابتسامة تسأل الأطفال :

– هل أعجبكم الفيلم ؟

وعدتهم بفيلم ثان بعد أن يستمعوا إلى أخبار الصغار في أنحاء العالم وتحياتهم وتهانيهم.

قال شريف : الغسالة.

هبت سلوى واقفة وقد تذكرت دنيا الناس .... أخرجت ما في الغسالة من ملابس .... عصرتها وألقت بها في طشت بلاستيك به ماء نظيف وألقت في بطن الغسالة دورًا ثانيًا من الملابس المتسخة ، ثم عادت قفزا إلى كرسيها التقليدي أمام الست السمينة التي تجلس في التليفزيون وتقرأ أسماء الأولاد الحلوين.

رن التليفون فأسرعت إليه ، لأنه يأتي في اهتماماتها بعد التلفزيون ، وقبل أن ترد قالت لشرف للمرة الألف :

– أحسن شيء فعله أبوك في حياته بناء هذا البيت وحجز التليفون.

تذكر والده الذي حجز التليفون منذ عشرين سنة ولم يركب إلا بعد وفاته بيوم .... تحولت إلى صورته مع أمه وقد رحلا معا في العام قبل الماضي.. لقد دفعته أمه لأن يبني هذا البيت ليكون لها سطح خصوصي تربي فيه الطيور.

.... أخذت سلوى التليفون ووضعته في حجرها وتابعت بعينيها فيلم الرسوم المتحركة.

لما طال الحديث التليفوني والغسالة لا تزال تعمل بإخلاص بعد أن فسد منظم الوقت وتنتظر يدا تمتد إليها لتوقفها .... أشار إليها .... كتمت السماعة بيدها وقالت له : أقفلها.

سألها : هل نسيت أن أباك مدعو للغداء معنا اليوم ؟

قالت على الفور : انزل اشتر اللحم.

فوجئ بردها وبالموقف الذي سيكون عليه .... تلفت حوله كمن يبحث عن شيء يلقيه عليها .... اختبأت من ذعره في الحديث مع زميلتها ، واثقة من أنه لن يفعل شيئا طالما هناك أخرى على الطرف الآخر .... منع نفسه من الثورة التي تليق بها .... ليس احتراما لزميلتها ولكن خوفا من إفساد عيد زواجهما الذي تقدسه ، والحرص على جو المودة قبل زيارة أبويها ، قال في نفسه : هذا عيب العلاقة الحسنة مع والد الزوجة .... كتم غيظه مؤقتا وسألها :

– ألم نتفق على أن تشتري أنت اللحم منذ أول أمس ؟

سمعته فكتمت نفس زميلتها وقالت :

– نسيت.

رفع رأسه إلى السقف وخاطب ربه دون أن يسمعه أحد ولكنها كانت تعرف ماذا يقول ، فقد عودها أن يشكو إلى الله إذا لم يستطع أن يغضب .... وتقريبًا هو لم يستطع أن يغضب منذ تزوجها .... وهذا الغضب الممنوع من التنفيذ يبدأ في صورة مشروع ضخم ونية مؤكدة لتحطيم العالم لأن هذه السيدة خلقت من مادة خاصة بها وحدها هي النسيان .... ثم يتضاءل الغضب ويتضاءل حتى يتلاشى ويصبح مجرد عتاب ناعم ومضحك يرسله إلى الله الذي يتسع صدره للكثير :

– لماذا يا رب اخترت لي هذه السيدة .... دون كل نساء الأرض .... العالم ممتلئ بالسيدات الجميلات من ذوات الذاكرة فلماذا هذه بالذات.

يتحول غضبه إلى عتاب كوميدي يثير ضحكها ولا يؤثر في تعديل تركيبتها الربانية .... امرأة بلا ذاكرة .... بل يمكن القول إن لها ذاكرة لا تحوي إلا برامج التليفزيون وأفلامه وسير حياة الممثلين.

لاحظ شريف أن الله لا يستجيب لشكواه. وهو لا يدري ما السبب في عدم الاستجابة .... كان في البداية يعزى ذلك لأنه يشكوها له ربما وهو غير طاهر وربما لأن الله يدرك أنه غير جاد في مظلمته .... لكنه بعد سنوات اقتنع أن الله لا يريد أن يعبث في مخلوقاته بعد أن أعدهم بهذا الشكل ووزع عليهم عيوبهم ومزاياهم المتباينة ، بحيث تكون عالما من الناقصين يحتاج فيه كل فرد للآخر ، وما دام الله ، قد قرر ذلك فسوف يظل الأمر كذلك.

اقتنع شريف نفسه بعد مرور سنوات طويلة من عمره كافية لمنحه وعيا بحركة الخلق وأسرار التشكيل الرباني – أن خطورة نسيانها مهما كانت نتائجه فهو عيب أقل من عيوب أخرى قاتلة تعرف عليها وصادفها في نساء أخريات يتفنن بهذه الصفات في خلق الأجواء التعسة وزرع نباتات مملة وسخيفة في حقل الحياة الزوجية.

إنها تنسى ما تبيت تحلم به ، وتنسى كل ما يغريها به زميلاتها وإعلانات التليفزيون التي تستفز – بلا رحمة – الفضول والغيرة .... تفكر فيه وقتها وتدهش وتتمنى .... ثم تنسى.

دخل عليها مرة فوجدها أمام التليفزيون ترقص لأن راقصة كانت في التليفزيون ترقص .... وتركها فيما هي فيه ومضى يفتش عن بيوت العنكبوت التي أمرها في الصباح أن تهدمها .... فوجدها كما هي

في ركن الصالة وفوق ستارة المطبخ وباب حجرة النوم، عندئذ لمحت غضبه يولد فقال له ....

– باقي عشر دقائق وينتهي الفيلم وسأهدم لك كل بيوته.

رفع يديه في اتجاه السقف وبكل خشوع قال :

– لماذا يا رب من دون كل نساء الأرض زوجتني هذه السيدة .... التي ....

قاطعته وكأنها تخشى أن يفضح عيوبها لله.

– شريف .... قلت لك عشر دقائق.

لم يكن عتابه لله إلا إعلانًا عن عدم رضاه ، إعلانا متفقا عليه تفهم منه مؤقتا ماذا يريد ؟ وهي تعمل بكل وسيلة كي تنفذ له ما يريد لأن قلبها عامر به تماما وهي متغلغلة في قلبه .... طائران وحيدان جميلان يحلقان معا بسعادة في هذا العالم الرحب .... طائران يرفرفان معا ويبتسمان معا ويفكران معا ويحتضنان الأحلام معا ، ولكنهما لا يلعبان الشطرنج معا .... ويتوجه شريف بالشكوى لله.

– لماذا يا رب من دون كل نساء الأرض زوجتني هذه السيدة التي لا تلعب الشطرنج.

– فكرت بدلا من الطبيخ والتسبيك نعمل كفتة على السيخ ونجلس فوق السطح. ما رأيك ؟

سألها بصبر نافد : ولماذا لم تشتر اللحم ؟

ردّت هي الأخرى بصبر نافد : نسيت.

ثم قالت بهدوء : بعد أن تصلي الجمعة اشتر اللحم وعندنا ما يكفي من الفحم ولا تنس السلطة .... أنت تعرف.

أسرع يقول : أبوك يحبها.

صرخ فيهما فجأة جرس الباب .... مضت إلى الباب ففتحته وفرقعت القبل مع والدها ووالدتها.

قال عم فريد السخن

– أنت لا تزال هنا

تقدم شريف ليلقاه : أهلا يا عمي.

سلم عم فريد ما معه لابنته وهو يقول.

– نامسيتوك كحلي .... لقد بدأ القرآن.

أجابه شريف على عجل ....

– أنت .... داخل سخن يا عم فريد.

تضاحكا ....

قال فريد : أنا لست مستعد لك الآن .... صبرك علي .... هيا لنلحق سيدك الرفاعي.

جلس عم فريد ففزع الكرسي حين هبط فيه الجسد الضخم وضاقت عليه الدنيا .... حاول أن يضع ساقا على ساق لم يفلح .... قال : لا أستطيع أن أكون عظيما في بيتكم.

مضى شريف من فوره ليتوضأ .... وتسلمت الأفكار رأسه بينما يداه تشكلان بالماء طقوس الوضوء.

كان في حيرة حقيقية من أمر صلاته ، لماذا يصلي كثير من الناس ومن كافة الأعمار أما هو فلا يستطيع !.... منذ سنوات وهو يتعثر في أدائه للصلاة .... في الماضي كان أبوه يوصيه بالصلاة كي ينجح ، فيصلي باهتمام ويذاكر بعنف قبل الامتحان وبعدما ينجح ينسى الصلاة

ولا يعود إليها إلا قبل امتحان العام التالي بأسبوعين ثم ينجح ويهملها ، ويعلق أبوه قائلا ....

صلي وصام لأمر كان يطلبه ، فلما انتهى الأمر لا صلى ولا صاما.

بعد أن تزوج وأحاطت به الظروف الصعبة قرر أن يصلي فغير مستبعد أن يكون ما جرى له غضبا من الله ، ولابد أن يعود إليه ويبدي الطاعة الكاملة.

– أنت تعلم يا رب أنني عبدك المطيع الذي لا يفعل ما يغضبك .... فلماذا أجد صعوبة في الصلاة خمس مرات يوميا ولماذا لم تشجع نبينا محمد كي يطلب منك أن تكون مرتين فقط صباحا ومساء .... أنت يا رب تستطيع أن تقلب الدنيا رأسا على عقب .... أنت تستطيع أن تدمرها أو تغرقها في العسل ، لماذا لا تجذبني إليها ولماذا لا تجذبها إلى ؟! أنت الذي تدفع الناس إلى حب أشياء كثيرة ، وأنت الذي تجعلها عليّ ثقيلة وتستطيع طبعا أن تجعلها عليّ خفيفة.

ساعدني يا رب كي أصلي .... ساعدني كي أكتمل .... أرجوك احسم المسألة .... أنا غير راض عن نفسي ومعترف بذنبي .... وأنا أقولها لك بكل جرأة مصدرها ثقتي في عدلك .... إما أن تساعدني عليها وتجعلها حبيبة إلى نفسي مثل سلوى أو تعدني ألا تحاسبني عليها يوم القيامة .... ربي .... كيف أعرف أننا اتفقنا .... أظهر لي آية من آيات أو علامة من علاماتك كي أعرف .... وأكون شاكرًا لو أرسلت لي ملاكا يقول لي كلاما محددا .... آه .... فهمت .... أنا لست موسى ولا إبراهيم ولا أحدا من الصفوة.

كان قد بدأ يصلي بانتظام طوال أيام الأسبوع .... ينتظر الصلاة بعد الصلاة .... يتوضأ ثم يترقب الآذان .... ثم يذهب إلى مسجد الرفاعي أو السلطان حسن .... ويؤدي الصلاة جماعة لينال ثواب الجماعة الذي يساوي مثل صلاة الفرد سبعا وعشرين مرة.

وتخلى أيضًا وبصعوبة عن هوايته الأثيرة إذا سار في الشارع وهي التطلع إلى مؤخرات النساء .... كان يتأمل ويقيم ويقارن ويسمح لنفسه بأن يتنبأ بمستقبل هذه وتلك .... مضت به هذه الهواية أو النزوة إلى مدى بعيد إلى درجة أن أصحبت عادة وله فيها آراء سرية رهيبة ، حتى لقد فكر في إحدى المرات المجنونة أن يسجلها في كتاب يخدم به الثقافة .... ورغم ذلك فقد كان على يقين من أن الله خلق المؤخرات لتدمير الرجال والنساء معا "بصنعة لطافة" ودون أن يحسوا هم أنفسهم بذلك مستسلمين للإغراء الجميل ....

كان يدمن هذا التحديق وهو يعلم أنه يخوض في أرض حرام. لكن قوة غريبة لابد يدفع لها الشيطان أتعابها كانت تدفعه إلى هذا الشرك ....

مع ذلك مرت الأيام دون أن تحمل له صباحاتها المصرة على الطلوع الخبر الذي ينتظره .... ولي العهد.

تسلل السأم إلى نفسه وأصبح يصلي في البيت ، ثم أصبح يسهو حتى يلحق الظهر بالعصر ، ثم أمسى يسهو عنها حتى يلحق بهما المغرب ، فيصلي دون إيمان كاف أو تركيز .... وأحيانا دون وضوء وهو يحسب أنه على طهارته في حين يكون قد أخرج من الريح ما يكفي لدفع زورق شراعي.

ثم تآكلت الصلوات واستقرت شهورا على يوم الجمعة فقط ، تلــك الشجرة الوحيدة في صحراء إيمانه القاحلة.

أخيرًا وعن عمد أو عن غير عمد تشــاغل عــن اليــوم الوحيــد المقدس .... فهو مرة في رحلة مع زوجته ، أو مشغول مع ضــيف لا تعنيه الجمعة ولا يحرص عليها ، أو نائم بعد سهرة امتدت حتى منابع الفجر .... وربما يستولي عليه دور شطرنج مع منيــر البــدري .... وهكذا أسدل الستار على فترة تاريخية في حياته كان يمكن مع الــدأب والمثابرة ومواجهة الشيطان بحزم أن يقيم صرحا روحيا شامخا.

عاد من وضوئه وسمع حماته تقول :

– اليوم عيد زواجهما يا فريد.

ضحك عم فريد ضحكته البقرية التي تغترف من كرشــه الضــخم قائلاً :

– صباحية مباركة يا عريس.

ضحك شريف وهو يطل في وجه عم فريد .... كان يدهش لليونــة أطرافه وبياض وجهه وخديه الكبيرين المدورين .... ملامــح امــرأة جميلة لولا الصلع ....

أخرج عم فريد من جيبه راديو صغيرا وبحث .... عــن محطــة القرآن الكريم .... كان يرتدي نفس معطف عمله بالسكة الحديد الــذي لا يفارقه إلا عندما يدخل فراشه .... في هذا المعطف تقريبا كــل مــا يلزم رحالة ينوي الدوران حول الكرة الأرضــية .... فيــه الراديــو والمشط ومفكرة بالمواعيد وأرقام التليفونات ، دفتر إيصالات للمخالفين من الركاب، البطاقات العائلية ، وبطاقة التموين فقد يمر في طريقه بأي

جمعية تعاونية توزع سلعا نادرة ، وفيه أيضًا بطاقات عضوية نـادي السكة الحديد ومستشفى السكة الحديد ، والنقابة وصور الأولاد جميعا .... بوصلة يحدد بها مواعيد الصلاة وأماكن لا يعرف قبلتها ، سلسلة مفاتيح تضم أكثر من عشرة مفاتيح بالإضافة إلى سلسلة ثانية فيها مجموعة من الأدوات الصغيرة سكينة ، شوكة ، فتاحة زجاجات ، ملعقة ، قصافة للأظافر ، في المعطف أيضًا : قلم جاف وكوتشينة، علبة كبريت ، وعلبتا سجائر وعلبة نشوق وبطارية تضيء له في حالة التفتيش في الليل ، زجاجة قطرة للعين وأدوية للصداع والمغص الكلوي ونظارة شمسية وزوج من الجوارب وزوج من المناديل لزوم المسافات البعيدة ، والخطاب الوحيد الذي تسلمه من ابنه "أصيل" بعد غياب خمس سنوات في كندا .... خطاب لا يفارقه كل يوم تقريبًا يقرؤه ليتذكر أن ولده فعلا – كما قال – أصبح المستشار النووي لأكبر مصانعها ومر على الخطاب الآن سنتان .... وكيف يفارق هذا الخطاب الذي أرسله ولده الباقي بعد استشهاد ابنه الأكبر "منتصر" في حرب ١٩٧٣.

عم فريد طوب الأرض يحبه لأنه لا يكف عن قول النكتة واختراعها في ثوان ، وكل شيء وكل إنسان مهما علا شأنه يمكن أن يوحي له بنكته ، وهو يقول النكت على الأطباء والوزراء والشعراء والفلاحين والصعايدة والطلبة والصيادين والممثلين والحموات والراقصات والطير والحيوان وعلى الملوك والرؤساء أيضا.

كتب منير البدري في إحدى المرات عامودا عن عم فريد دعا فيه وزارة الثقافة لتخصيص مادة عنه في المعهد العالي للدراسات الشعبية

بوصفه مثلا بارزا من الفلكلور الحديث ، ودعا أيضا إلى تعيين موظف يلازمه ويسجل كل ما يقوله ، واعتبر عدم الاستجابة لاقتراحه تبديـــدا لثروة أصيلة من ثروات الوطن.

لبس أجمل ثيابه وتعطر ، توجه هو والعم فريد إلى المسجد التقيـــا في الدور الثاني بمنير البدري .... كان يغلق شقته في عجلة، لمحهـــا فعاد يسلم على عم فريد وقال :

– آسف .... طلبني أخونا النقيب سليمان الملط ولابد أن أذهب إليه في القسم.

* * *

(٤)

وضعت سلوى أمام أبيها لوازم السلطة وهي تقول :

- شريف تأخر.

قال عم فريد :

- ربما قبضوا على مدرسي التاريخ.

تنهدت سلوى وبدا عليها القلق.

- أكثر من ساعة ونصف .... الفرن قريب ....

- شريف كثيرا ما يشرد .... ربما وقف في طابور وبعد أن جاء دوره اكتشف أنه ليس طابور العيش.

اندفعت أم منتصر في زوجها :

- بطل يا رجل .... البنت في حيرة وأنت تقول النكت.

- أنا لا أقول نكتا يا أم منتصر .... أنا جاد جدا.

انتهى فريد من إعداد السلطة التي يشتهر بها على مستوى عدد من العمارات حتى إنه في شهر رمضان يحضر إليه قبل الإفطار أولاد الجيران ليطلبوا سلطة عم فريد السخن فيعطي كل أسرة طبقًا .... واقترحت عليه "مكاوية" أن يفتح دكانا صغيرا يتخصص في السلطة ويمكن أن يضم أيضا المخللات .... لم يكن بحاجة إلى جهد كي يقنعها – هكذا تصور – بخطأ رأيها ، لأنه يكسب من عمله مفتشا بالسكة الحديد ، ويكفي أن تكون المسألة بينه وبين جيرانه مجرد محبه ووصال .... تركها تحتج في صوت خفيض وكلمات مبهمة على طبع هذا الرجل غير المريح ، مع أن يدها تتناوله في يسر .... لكنهن النساء .... لا يكتفين بامتلاك الأرض والفضاء.

تمدد عم فريد على الأرض دون وسادة ورأسه أعلى مـــن الأرض بنحو شبر وسرعان ما علا غطيطه. ولم تدهش زوجته ولا ابنتـــه .... كيف يتعلق رأسه عاليا هكذا وينام !

بعد ساعتين عاد شريف كأنه مسحوب من تحت أنقاض عمـــارة ، الفرق الوحيد هو أنه يحمل خبزًا .... السويتر الجديد الذي يلبسه لأول مرة ممزق بفعل مطواة .... ربما سلم ولم تنفذ في اللحم ، ياقة القميص مخلوعة ومتدلية على صدره .... البنطلون عليه بقع كبيـــرة والشـــعر أشعث وعينه اليسرى زرقاء وعلى شفته السفلي نقطتان من الـــدم .... الخبز على كفه الأيمن بينما ذراعه الأيسر مشرع في الهواء لأن به ما يعوق نزوله إلى جانبه كباقي البشر ، كل ملامحه تنطق بالألم العميق.

صرخت سلوى وأمها في نفس واحد ، وهب فريد من رقدته التـــي كان حامل الخبز المحطم يرقبها في ذهول.

– ماذا جرى ؟

بشفة معوجة قال شريف : لا تفزعوا هكذا ....

لم يستطع عم فريد أن يسيطر تماما على نفسه وأفلتت منه ضحكة.

قال شريف :

– قدر ولطف .... أنا أحسن من غيري.

حينئذ لم يحاول عم فريد أن يمسك نفسه .... دوت ضحكته البقرية في البيت كله وأم منتصر تلكزه بلا فائدة .... ولما انتهت بقيـــت لهـــا ذيول متجددة.

قال : كل سنة وأنت طيب .... الناس لابد تعرف أن اليـــوم عيـــد زواجكما.

قال شريف :

– الناس لها عذرها.

قال عم فريد وهو يحاول أن يكون لأول مرة جادا.

– طبعا الظروف صعبة.

قال شريف بحماس :

– الشعوب كلها تمر بظروف من هذا النوع ، وعليهم أن يصبروا لأنها غالبا تكون مؤقتة .... كل مراحل التاريخ تؤكد ذلك .... الأوضاع السيئة لا تدوم أبداً.

فعاجله فريد : ولا الحسنة.

– المشكلة تبدأ على يد المرتزقة عديمي الضمير الذين يتاجرون بأقوات الشعب.

وسأله عم فريد : وما دور الحكومة ؟

ترك شريف نفسه لسلوى تنزع عنه السويتر وقد آلمه ذراعه المرفوع وقال ورأسه مختفية .... تأكد أن الحكومة لن تسمح لهم بالنمو واستغلال الأزمة .... إنها ولا شك تعمل في صمت وتعد العدة.

– ما الذي يجعلك بهذه الثقة ؟

– المنطق .... إن الظروف الحالية لا تخفي على أعمى ، ولا يهملها إلا بليد الحس.

تدخلت سلوى قائلة :

– لا .... لابد أن تترك هذه الأحاديث وتغير ملابسك كلها.

قال عم فريد : لماذا لا تشتري لك الملابس الخاصة بالطوابير .... الخوذة والجاكيت الحديد.

قال شريف : لسنا في حاجة إليها فنحن لا نشـــتري غيـــر خمســـة أرغفة.

تدخلت أم منتصر : لو لم نحضر ، لما حدث كل هذا.

اندفع عم فريد فيها : وهل ضرب في اللحمة ، لقـــد ضـــرب فـــي الخبز.

أحس شريف أنه سيتعرض بهذا الحوار للإهانة إن لـــم يكـــن قـــد تعرض لها فعلاً فقال : البيت نور بوجودكم.

واستطرد

– كنا نتمنى أن تكون معنـــا الســـت صـــحراء والأســـتاذ مفـــرح وأولادهما.

قالت أم منتصر :

– صحراء ربما تضع غدا أو بعد غد ، زوجها عزم على تســـمية المولودة سلوى والمولود شريف.

قال شريف وهو ينهض لتغيير ملابسه.

– شعور نبيل.

كان مفرح القفاص زوج ابنتهـــا تقريبـــا لا يعمـــل أي شـــيء إلا الإنجاب .... ليس عليه إلا المرور على المزرعة والعقـــارات التـــي تركها أبوه يجمع إيرادها ، أما المكتبة التي فتحها أسفل عمارته فهـــي ليست إلا صورة نشاط وهمي .... حتى لا يتهم بأنه عاطل .... وطلب من زوجته أن تلزم بيتها .... تطهو الطعام وتنجب .... وليس لديه أي استعداد لأن يقوم على خدمة زوجته إلا أختها سلوى .... يرتاح ويثق فيها جدا .... ولا يعقل طبعا أن يكون المقصود هو ســـحق أعصـــاب

سلوى وتحطيم قلبها لأنها لم ترزق بولد حتى لو كان العيب من زوجها .... فالمحبة خالصة بين الأختين .... المشكلة أنه لا ينوي أن يتوقف عند حد .... يريد أن يؤسس أسرة كبيرة يكون هو عميدها ، يريد أن يكون له شعب يحكمه وجمهورية هو رئيسها ، يتحكم في مصائر أهلها حتى وهو نائم ، وياليتها تكون إمبراطورية.

ولما قال مثل هذا الكلام في مرة أمام عم فريد .... انتظر فريد برهة ثم قال :

– أنا ربنا أكرمني

فسألوه عن مظاهر هذا الكرم

– أعطاني زوجين لابنتي يعيشان على الوهم .... واحد متفائل بدون سبب يقول إننا سنعيش قريبًا أزهى عصورنا .... بعد مائتي سنة فقط والثاني يبحث عن أي شعب ليحكمه .... نفسه يحكم ناس .... وحين لم يصل إلى الحكم قرر الإنجاب بلا نهاية. من ستر ربنا أنه لا يريد أن يكون له أبناء من زوجات أخريات .... هو يريد كل جمهوريته من صحراء ابنتي وسوف يزوج أي ابن فور بلوغه.

عندما أعدوا كل شيء صعدوا إلى السطح .... كانوا يسكنون الدور الرابع وهو آخر دور .... الدور يضم شقتين .... وكانت الشقة المجاورة لشريف من نصيب أخته أليفة ولكنها أجرتها وسافر أصحابها إلى الكويت.

طالعهم النور الغامر والسماء الصافية والشمس الشتوية الحنون، ميدان صلاح الدين يبدو بكامله تحت أعينهم ، وترتفع إلى اليسار قلعة

صلاح الدين وقباب جامع محمد على، وإلـــى اليمـــين قلـــيلاً مســـجدا الرفاعي والسلطان حسن والي جوار المنزل مباشرة مسجد المحمودية.

دعت سلوى والديها لمشاهدة الأرنبة وأولادها .... قطع من القطن الناصع تتقلب حول الأم وتقرص بأفواهها المنمنمة أعواد البرسيم .... صورة بسيطة وناعمة للحنان والجمـــال .... نغمـــة فـــي ســـيمفونية الوجود ....

السطح كبير ويكفي جدا ليهنأ به عدد كبير من الأطفال .... لكـــن يبدو أن الأوان لم يحن بعد .... هذا ما خطر ببـــال أم منتصـــر .... تنهدت بأسى وتذكرت ابنتها التي على وشك أن تضع طفلهـــا الســـابع خلال عشر سنوات.

انهمكت سلوى في لف الأسياخ باللحم المفروم الذي جهزته بالبصل والتوابل ، أما شريف فكان عليه أن يشعل الفحم في الشواية ، ويهـــف عليه بقطعة من الورق المقوى .... كان الفحم عنيدًا يأبى أن يتأثر بكل ما أشعله شريف من نار .... أيقن شريف بخبرته أن الفحم قد شـــرب ماء من أي مصدر ، والأرجح أن تكون سلوى قد تركت الفحـــم فـــي الخلاء فأغرقه المطر .... لابد أن يشتعل وإلا ضحك عليه الجميع .... لن يشفع له أنه قد عاد محطما من حرب الخبز .... عمه فريـــد ملـــك الضحك موجود ، ولديه الاستعداد لعمل مسلسل كامل من الضحك حول مهزلة اللحم المشوي على فحم لا يشتعل .... ســـيكون حظـــه ســـيئا للغاية .... وما هي غير لحظات حتى تنبه عم فريد لمعاناتـــه ولمـــح منظره الذي ينبئ بالفشل .... وذراعه الأيسر مرفوع ، والأيمن يهـــف وحده قليلاً ثم يرتاح .... ولا نار تظهر أو دخـــان ، تـــولاه ببديهتـــه

الحاضرة ونكاته اللاذعة ، حتى لعن شريف التواطؤ المشهور بين الخوف من حدوث شيء وحتمية حدوث هذا الشيء .... تألقت قريحة عم فريد كلما رأى العرق يسيل من جبين شريف مغرقا خديه ، وهو يهوي على فحم ملعون عب من الماء ما يكفي كي يتحول إلى عصير فحم.

حاولت أم منتصر أن توقف زوجها ، لكن ذلك كان أمرًا مستحيلاً .... معناه أن يسقط من طوله ميتا من الكتمة .... إنه بسبب هذه النكت يشعر إنه حصان حر طليق يجري في مضمار بلا نهاية والجميع يصفقون له.

تقول زوجته مكاوية : من كثرة هذا الضحك يا حبة عيني إذا وصل السرير ينام كما ينام الكلب بعد الفجر .... كأنه قتيل بعيد عنكم.

لكنها قالت وهي توشك على البكاء : تصوروا أنه يقوم بالليل ويجلس ويقول نكتة ويضحك ، ولا يعود للنوم إلا بعد أن أجره وأعيده إلى الفراش.

العرق أغرق بيجامة شريف .... صدره وكتفيه وظهره ، والبنطلون أيضا .... تفجرت عيون العرق على مؤخرته.

حاولت سلوى أن تأخذ المهفة من زوجها ، لكنه أبى استجابة لأوامر كرامته المهددة .... وأخيرا وبعد أن شبع فريد ضحكا وإضحاكًا سقط شريف على الأرض ونظر إليهم مبتسما ، وكان هذا معناه أن الفحم أخيرًا استسلم للنار التي يضرمها شريف .... وربما استجابت له رحمة به وبالجوعى المنتظرين واحترامًا لليوم المشهود.

دنا عم فريد من شريف وأخرج منديله وبسطه في الهواء وأخذ يهوي على وجه زوج ابنته المنهار .... كما يفعل مساعد المدرب مع الملاكم المتهاوي ، ثم نادي مكاوية وقال لها : تعالى أنت هَوِّي .... وأنا ، سأعد عليه من واحد إلى عشرة .... إذا لم يقم سألقيه خارج الحلبة .... ويكون في علمكم .... السطح كله حلبة.

أغرق الجميع في الضحك حتى الملاكم الذي لم يستطع أن يقوم ، وأعلن الحكم هزيمته وفوز أم منتصر .... وقبل أن يلتقطوا أنفاسهم قال : لو هويت بالمنديل عليك يا شريف ستشتعل.

قال شريف في سره : يخرب بيتك .... أنت عبارة عن آلة ضحك لا تتوقف.

تراقص اللهب الذي أرهق شريف حتى اشتعل ، وتلوَّت أصابع اللحم من لسع صهده ، وسقطت دموعها قطرات من الدهن لتطفئ نار الفحم. فنفث غضبه دخانا ذا رائحة تحرك بطون كل السكان الذين يعيشون في مساحة كيلو متر كامل ، وبدأت الحلوق تستعد ، والأمعاء وقد بلغتها الأنباء تترقب وصول المؤن الغزيرة .... لم تعد النار بحاجة إلى جهد شريف فظل مضطجعا ينتظر ....

لفت نظره أن جيب الحاج فريد يتقلب بما يعني أن حركة بداخله .... ثم برزت رءوس كتاكيت ملونة صفراء وحمراء وبنية .... ملامحها منمنمة..اختفت الكتاكيت ثم أطل فأر برأسه .... تلمظ بفمه الصغير الحقير واهتزت شواربه.

.... ظهرت بعد لحظات قطة تتلمظ .... دلك شريف عينيه واختفت القطة وهبط الجيب المنتفخ ....

هل هذه الصور تبدو له لأنه جوعان ؟ هـــذا ممكـــن .... أم لأنـــه محطم ؟ أيضًا ممكن .... ولماذا لا تكون الحقيقة ؟ ممكن جدًا ....

* * *

(٥)

خرجت من الحمام ترفل في ثوب شفاف ، لم يستطع أن يخفي شيئا مما تحته ولم يكن تحته غير قطعة واحدة مشهورة ، ما عدا ذلك اللحم الأبيض المتوهج يكاد يضيء.

كان شريف قد خرج قبلها لأنه لا يقضي وقتا مثلها في الحمام .... فالطقوس السنوية التي تضمنها احتفالهما بيوم زواجهما تقضي بأن يحلق إبطيه وذقنه وشعر أذنيه وأنفه ، وتكون هي قد انتهت منذ الأمس .... إجراءاتها المعقدة لنزع الزغب من جبهتها إلى أصابع قدميها ، أما اليوم فالحمام ، وعليه أن يدلك لها ظهرها حتى يصير مشتعلاً بالدم ، وتدلك له ظهره جيدًا وتطمئن على عظامه البارزة التي يمكن عدها بالواحدة ، ثم يكمل حمامه الذي عادة ما يكون سريعا ، ويرتدي الملابس التي ارتداها في ليلة الدخلة .... والتي لا يرتديها أبدًا في هذا اليوم حتى لو اتسخت كل ملابسه .... بيجامة بيضاء حريرية يدور عليها فوق مواضع الخياطة .... خيط أسود رقيق .... كانت قد أهدتها له حماته ، وهي ترتدي أيضًا هدية أمه .... قميص النوم الشفاف وفوقه روب من نفس القماش واللون .... ويكون كل منهما جاهزًا للخلع عند أول إشارة وبلا جهد لا تتحمله الأعصاب في الوقت الحرج.

عود شريف في هذا اليوم أن يطفئ جميع الأنوار ويرفع سماعة التليفون ويوقف المنبه الذي أحيانا ما يرن في أوقات في غير مناسبة ولا ملزمة لليقظة.

لا يطفئ شريف الأنوار طبعا إلا بعد أن تتم سلوى زينتها ويكون قد أشعل الشموع ، وشرعا يتحركان في الشقة كشبحين أو كلصين يعرفان ما يجب عمله.

جلس شريف مسترخيا في الشرفة وأشعل سيجارة .... أطلق نظراته على القاهرة الممتدة بلا نهاية ، وبدون صخب ، وهذا ما جعله سعيدا ببيته الذي يقع على أعلى قمة في القاهرة المسكونة .... القلعة .... حيث عبق التاريخ وأحداثه الجسام ومن بينها تتصاعد أنفاس العظماء ، ولا زال وقع خطواتهم يتردد في أبهاء النماذج المتألقة للعمارة والحضارة الإسلامية .... أخذ شريف نفسا عميقا وأحس بالزهو .... مساكين .... وجديرون بالشفقة أبناء الشعوب الوليدة .... لأنهم بلا جذور ولا تاريخ ولا مواقف شامخة ولا فن رفيع في الأدب والعمارة .... أما أبناء الشعوب التي تملك قدرًا وفيرًا من ذلك فإنهم يتدللون وينامون قريري العيون ويفشلون وهم مطمئنون إلى أنه عند المنافسة سيتلاشى الجميع أمام الميراث الحضاري الضخم.

ها هي القاهرة عملاق يخور بعد أن آب للسكون والدعة .... بحر من الهياكل المعتمة وقد طرزتها الأضواء .... السيارات تدور وراء بعضها في الميدان بلا توقف.

هذا هو العام السابع منذ تزوج شريف ولم يأذن الله لهما بالولد وهو يعرف أنها حالة غير شاذة ولكن بالنسبة له .... الوضع غير مريح .... وضع يفتقد المصدر الرئيسي للسعادة والفرح .... لقد أكرمه الله بزوجة ممتازة شكلاً وخلقًا وأصلاً .... لكن .... ودائما هناك كلمة "لكن" تتربص بالناس .... كلمة أكثر شهرة واستخداما من

الملح في الطعام .... تتغلغل في كل شيء وتمثل عاملا دراميا ، بل مأساويا في كثير من قصص الحياة والناس .... دورة وضعها الله في كل حياة .... وفي كل شعب وفي كل قرار ، وفي كل قمة .... لكي تبدأ على أساسها رحلة النهاية .... طالت أم قصرت.

بعد البحوث الطبية العديدة ثبت أن العيب منه .... وجرب كل شيء حتى أيقن في النهاية أن الله هو الذي يريد ذلك ويصر عليه ....

أما السبب في أنه لم يكن في صبره غاضبا أو متبرما ولا هي في استسلامها لقدرها ساخطة أو محتجة بأن العيب منه ، فهو أنها منذ طفولتها تعاني من ضيق في الشريان التاجي .... وهذا يعني حسب نصائح الأطباء أن الحمل قد يسبب الوفاة.

هل الدنيا مرسومة بحذق بالغ كما يقولون والمصائر يحركها ماكر ؟ هل يتدخل الله في تحقيق التوازنات بين الناس إلى هذه الدرجة ؟ أخذ نفسا عميقا من سيجارته ونفثه على مراحل طويلة .... حتى لو لم أكن عقيما لما أردتها أن تنجب لأن هذا معناه أن أفقد هذه الإنسانة الغالية ، سبقتها رائحتها إلى أنفه وكيانه قبل أن تضع كفيها على عينيه وتقول له : هل تعرف من أنا ؟

قال : ساعديني ببعض الصفات.

قالت : ببطء ودلال : حلوة .... وأحبك واليوم عيد زواجي.

اندفع قائلاً : عرفتك.

قالت : من ؟

قال : عم فريد.

ضحكت وعانقته .... اقشعر جسمه ، وأحس ببرودة زائدة ومفاجئة تدفعه نحوها .... لقد جاءت بالضبط عندما كان يناقش أو على الأصح لا يناقش للمرة الألف قيمتها عنده ثم يعلن بإجماع كل أصواته تفضيلها على الدنيا كلها.

أخذ عدة أنفاس متلاحقة من سيجارته ليتفرغ للسيجارة الكبرى .... السيجارة التي لا يمل من تنفسها والاستمتاع بدخانها.

جلست على فخذيه وأطلت في عينيه .... ألفت قلبه قابعا ينتظرها على باب حبه ، وحبه قصر أسطوري يستعد لاستقبالها ويغلق للأبد عليها أبوابه .... أطل في عينيها .... فوجد الرقة والعذوبة والحب الصافي والأنثى فيها تتعجل الإجابة العملية على السؤال الخطر : ما رأيك ؟.... ألا زلت جميلة ؟ ترك العينين ومضى يبحث عن الإجابة ....

أسعده أن يكون – هو العبد الفقير – مالكا لهذا الجمال ، حسده أكثر زملاؤه إخلاصًا حين وقعت أنظارهم عليها .... كان بعضهم يغامر بإعلان رأيه أمامه بصراحة اعتمادًا على أنهم أصدقاء .... ولكنهم تدريجيًا بدأوا يتمنون له السعادة بعد أن أيقنوا أن الجمال وحده ربما لا يكون كافيا.

ارتاح شريف لاعتقادهم هذا ، لأنه بالطبع لا يسعده أن تخطر امرأته ببال أحدهم ، وأفكار الخلق وخيالاتهم تعربد بلا حدود .... وقد تعود أن يقبل عليهم من كل قلبه دون أن يخالجه أي شك في إخلاصهم له ، بل وفي إخلاص العالم كله لبعضه.

– ماذا بك ؟

- أحس أنني تزوجت الليلة فقط.
- إذن فقد مسحت سبع سنين.
- لولا الذكريات الجميلة كنت مسحتها.
- اعتبر أننا كنا مخطوبين.

تأمل شفتيها .... كانتا كقلب عاشق مضغوط ، تصور أن شفتها العليا ذات أجنحة وأنها توشك أن تطير ، تأملت شفتيه كي تهجم عليه وتقبله ، لعلها ترفع درجة حرارته التي لا تزال أقل من المعدل المناسب في عصر ما بعد رؤيتها مزينة ومعطرة .... كانت شفتاه رفيعتين جدا كشق فتحه الطبيب تحت أنفه .... لكنها تحبهما وتشتاق إليهما وترى أنهما شكل مبتكر من أشكال الشفاه.

قبلته متفادية بمهارة أنفه الطويل الذي كان يتدخل دائما للحيلولة دون وقوع أي لقاء من هذا النوع. لأنه فيما يبدو كان يدرك مسبقا ما الذي سيحدث له ولصاحبه بعد هذه اللمسة السحرية .... كان يعلم بفضل إلهامات فطرية كإلهامات النساء أن الأنف هي التي تدفع ثمن هذه اللحظات .... لا الجيوب كما يشاع.

وضعت رأسها على صدره وتشممت رائحة رجولته وحنانه سألته وهي شبه شاردة : هل تعلم ما هو المهر الحقيقي للمرأة ؟

قال دون أن يفكر في الإجابة : لا.

قالت : أن يكون الزوج باعثا على الطمأنينة ، قادرا على تحقيق الأمان .... هذا هو ما يسعد امرأة الخفير وامرأة الأمير.

قال برقة : أنت جديرة بأمير .... لكن ليس في مصر أمراء.

تنهدت وقد شعرت براحة لا متناهية لهذا الأمان الإنساني اللذيذ ، والذي تتوجس من عمره القصير ....

استمتعت معه بتأمل المساء الذي صفا وتطهر بسرعة من أدران الهياج البشري .... وفي الأفق البعيد لاحت لهما بعض النجوم وهي تحاول أن تخفي سقوطها السريع. أدرك أنه أسعد مما يتصور رغم إصابة عينيه وذراعه الأيسر ....

اكتشف أن الآلام التي كانت في فكه تراجعت بسرعة مشاركة منها في طقوس يومه المجيد.

كبر البدر الصغير وأتاح له رحيل الغيوم الفرصة كي ينير ليلة من يتعطشون للضوء المسائي الشاحب.

وقف شريف بنظراته على خديها المتوترين بالشوق .... قبل الخد الأيمن وتوقف ليتذوق فأشارت له على خدها الأيسر : هذا سوف يغضب.

قبله بعناية خاصة حتى لا يغضب حقيقة. ثم عاد وقبل الأيمن حتى يتحقق العدل.

سألته بوله : هل يمكن أن نعيش العمر كله هكذا يا أنا ؟

أجابها شريف متطلعا إلى السماء :

– لن يسمح الله بذلك يا أنا

سألته : وماذا سيفعل ؟

قال : سيأمر النهار بالطلوع.

تململت قائلة : أنا لا أحب النهار .... الليل أجمل.

شرد قليلا ثم قال :

– كانت كلمة الخلود إلى وقت قريب كلمة وهمية أو مجازية لكـن حينما يجمعنا الليل معا في مثل هذه الأوقات أشعر شعورًا عميقًا بطعم الخلود.

ارتاحت بإحساسها فقط لكلماته ، دون أن تعي تماما مدلولها أما هو فكان يحس أنه لا يملك معها إلا أن يكون رومانسيا رقيقا يحمل قلبـه دائما على كفه ويقرأ لها منه.

حكى لها بهدوء وبطء كأنه نصف مخمور عـن بعـض ذكرياتـه ونزواته التي تجلت خلالها سذاجته وقلة خبرته ، وهي مع كل قصة أو موقف تغرق في ضحك رنان ،.... ذكرها بحديقة الحريـة والشـجرة التي حفر عليها اسميهما أيام الخطوبة والحب في الشوارع ، ثم عـادا إليها بعد شهرين فلم يعثرا عليها .... كان المسئولون عن الحديقة قـد أعادوا تنسيقها بعد أن اجتثوا الشجرة من جذورها وأخفوا كـل آثـار الخطوط النزقة وأقاموا مكانها نـافورة .... تـأملا النـافورة وهمـا يتصوران اسميهما معلقان بذرات الماء الفضية.

سألها : هل تذكرين يا أنا ما الذي جرى بعدها ؟

قالت : ذكرني يا أنا.

قال : ألم أقل لك وقد سيطر عليّ العناد .... لابد أن أسجل اسـمك على شيء لا يستطيعون هدمه أبدًا ولا حذفه.

ابتسمت وهي تخوض في ضباب الذاكرة.

سألتك : أين ؟ فقلت على الحديد ....

ضحكت وكادت تطير لهذا الوعد الجميل .... تهادت إلى جانبه في موكب البهجة على كوبري قصر النيل ، والنسمات العفية تشرب مـن

النهر وتهجم على المارة فترفع ثياب النساء ، وتقضم آذان الرجال وتحمل الأطفال حملا على العدو والفرح .... بحث معه ومعها عن أي أداة حادة ليسجل بها اسميهما على حديد الكوبري إلى أن رضي أخيرًا بملقاط الشعر الذي كان معها .... وحفر الاسمين داخل قلب واحد وسهم كيوبيد يمر به ، والحب يسيل قطرة قطرةَ ولكنه كفيل بإغراق الآخرين.

بعد شهر حملهما التسكع والبحث فوق النيل عن طريق عذب تظلله النسمات العليلة يمكن أن يسير فيه حبهما متخلصا من الطرقات الفظة والعيون .... كان طبيعيًا أن يمرا على سجل الخلود الذي نقشا فيه اسميهما.

لم يستطيعا تحديد مكان الصفحة الحديدية التي ستذكِّر القرون القادمة بعاشقين تعاهدا بكل عمق الحب على مقاومة الزمن والظروف ، والحياة إلى الأبد برغم الحياة والموت.

كان متأكدًا أنه لم يحدد المكان بسحابة وإنما بالعامود الذي تحته مباشرة بغلة الكوبري .... وها هو العامود وها هي البغلة.

حدث في حديد الكوبري من جديد .... تلفت حواليه ومسح الكوبري بعينيه.

- هل تذكرين يا أنا ؟
- ذكرني.
- لون الكوبري يا أنا.
- نعم .... نعم. لقد تغير لون الكوبري.

كان يحاول أن يلعب وحده مع دنيـــا محتشـــدة بـــالخلق والتغيـــر والجنون .... كان لون الكوبري أخضر والآن هو أحمر .... لم يعثـــر أبدًا على الاسمين ولا على القلب ولا حتى سهم كيوبيد .... أعيد طلاء الكوبري وتغطى تماما كل ما كان به من ندوب أو خـــدوش أو قلـــوب تبحث عن نافذة وهمية لحياة مختلفة.

نهضا وتعانقا أمام العالم ثم مضيا إلى الداخل .... هي إلى المطبخ وهو إلى حجرة النوم.

جاءت بالموز واليوسفي وأسعدها أن تجده قد عثر على اللحن الذي يتسق مع لحظات خالية من الزمن ، ورآها تطلع عليه من داخل الثوب الوردي الفضفاض نهما مجتاحا فتذكر دعاءه ؟. يا رب ما دمـــت قـــد قضيت على بألا أنجب فلا تحرمني من الشهوة أبدًا ومر عصبي دائما بالاستجابة كلما أمرته .... وكان قد آتاها في فتـــرة حـــيض وإذا بـــه يتعطل بعدها شهرين ، لو أدخل جهنم لما عاني من العذاب قـــدر مـــا عاني .... يا رب ما دمت قد .... وسرعان ما انتشر ونهض ، فتلقاها بين أحضانه .... وقبلها قبلة ناعمة ومدللة ، لكنها امتدت أكثـــر ممـــا ينبغي ودنا الجسدان في اتجاه التوحد ، وشرعا يرحلان إلى عالم آخر. تعالت الموسيقى المتئدة وتوترت .... تخلصت من البدايات المتوجســـة وارتقت درجا فوق درج .... وتوالى القفـــز فـــوق أغصـــان الجســـد المنتفض بالنشوة .... مالت الأنغام في دلال وتثنت.

انسدل الرداء وتخلى عن دوره في الوقت المناســـب .... انكشـــف الجسد المرمري الدافئ .... ناعمًا ومثيرًا .... صرخت الظلمة تحـــت

وقع أنفاسه المتوهجة ، وألهم الجسد الملك يد العبد المشتاق مهارة ورقة في تلمس الطريق إلى مواضع لتقديم القرابين.

أحس أن امرأته بالذات ، في هذه اللحظة بالذات وهي مفعمة بالدعوة الفاتنة ، أثمن ثروات الأرض ، فتفتحت كل طاقاته وغرائزه حيث الجميع مستعد لأن يفقد الحرية تلبية لنداء الرغبة العاتية ، وأتيح لعقله أن يدهش وهو يفكر في الحكمة الإلهية التي حالت دون جعل حياة البشر كلها على هذا النحو ، لماذا لم يترك للبشر حرية أن يتقدموا في هذا السبيل أو يتأخروا ؟ لكنه لم يستطع أن يجد الوقت ولا الفكر للإجابة بالنيابة عن الحكمة الإلهية.

ألقى بالفلسفة بعيدا حين صرخ النغم فجأة ، وارتجفت الأوتار من هول الأعصاب المحمومة وتأوهت من عنف الإيقاع .... لو كان لها الآن أن تتمنى لتمنت أن يؤجل موتها لحظات حتى تكمل اللحن الخالد .... أي سر في هذا اللحن الأثير ....

.... تحولت الحجرة السابحة في الأسرار والدفء إلى تفاحة كبيرة تأكلها آلاف الشفاه .... اللعنة لو لم يكن هذا اللحن الرائع نهاية ، ولم يكن منه شبع ، لا شك أن الذي وضع هذا الكونشرتو كان يبغي أن يجن العالم بفنه وأن يأسرهم بحكمته وجبروته العبقري.

وفي الحركة الأخيرة انشال المايسترو وانحط ، وتوتر اللحن المحموم وأسرع يدور حول نفسه بعنف ويوشك أن يحطم الأوتار الملهمة ثم علا وعلا .... وواجه أقصى قمم اللذة التي صدمته بلا رحمة ، فاندفع نحو الأرض بقسوة إلى أن ارتطم بها وسكن ، وتفجر البهاء على الملامح المنهمكة واستسلم العالم لغيبوبة الرضا والسعادة.

بعد لحظات اقترب نحوها ورآها متألقة في الضوء الوردي المتواري .... كان في جسده ، وهي في جسد آخر ....

العينان في العينين والشفاه منهكة ، دنت الأصابع من الأصابع وتشبثت بها .... هذا فقط ما يستطاع والساعة الآن الثالثة حبًا بتوقيت حجرة النوم في شقة شريف أبو العلا موسى وعلى المقيمين خارجها أن يضبطوا أزمانهم عليها إذا استطاعوا ....

دس يده تحت الوسادة وهو يقول لها : أغمضي عينيك أغمضتها .... وطلعت يده بعلبة صغيرة حمراء ، فتحها وقال لها :

– كل سنة وأنت طيبة يا أنا.

فتحت عينيها .... شهقت فرحا وهي تقول :

– إنه هو .... بالضبط هو .... ألازلت تذكره يا أنا ؟

– وكيف أنسى شيئا طاف بخيالك !

كانت قد رأت هذا الخاتم منذ عام تقريبًا وأطالت النظر إليه ، ومرت الأيام وشريف ينتظر المدد من أي مصدر ، ولكن شيئا مما تمناه لم يحدث ، إلى أن فوجئ قبل أسبوعين فقط بالأستاذ ملاك يخبره بأنهم كسبوا قضية الحوافز المستحقة لهم منذ أربع سنوات ولم يسبق صرفها بواقع جنيه واحد و ٨٥ قرشا في الشهر ، بكل أعصابها قالت : يا حبيبي يا أنا.

قبلت صدره وانحنت إلى "الكمودينو" فسحبت منه لفة وأعطتها إياه.

– كل سنة وأنت أحسن مخلوق في الدنيا يا أنا.

اعتدل وفتحها .... تأملها ثم قبلها .... روب له ولكن مـــن قمـــاش غريب .... روب يمكــن أن يكــون لمهراجــا أو لصـــياد نمـــور أو دجال .... من أين حصلت على هذا الروب ؟

ابتسمت وهي سعيدة بدهشته .... سألته ؟

– هل أعجبك ؟

– طبعًا .... ولكنه غريب وألوانه غير عادية وخيوطه و ....

– هذا من ريش الديوك.

– مؤكد هو من الخارج.

– بل من صنع يدي.

فتح فاه وعينيه ....

– تسلم ، ولكن أريد الحقيقة

تنهدت وقد بدا عليها الزهو ، ثم قالت :

– خطرت لي الفكرة بعد عيد زواجنا الماضي مباشرة .... أي منذ عام، جمعت ريش الديوك التي أربيها لمدة ستة أشهر ، ثم بـــدأت فـــي صنعه.

.... نسجته من خيوط الريش الرفيعة بعد أن نزعت من الريشـــة عصبها الأوسط.

– مستحيل .... هذا كثير.

– وانتهيت منه منذ أسبوعين.

هيا قم وأرني كيف تبدو فيه.

نهض بعريه وارتدى الثوب الغريب .... ألوانه وحـــدها تـــومض وتنطفئ .... ملمسه عليه مثير .... ما هــذا ؟.... تــوترت أعصـــابه وأحس بالهياج. ابتسم فسألته : ما بك ؟

قال ضاحكا : أود أن أصيح وأوقظ الفجـــر. ضـــحكت ضـــحكتها الرنانة فأضاءت الصالة وتسللت بقاياها إلى أعماقه .... هاجمه العـــدو اللدود ، الذي تعود أن يتربص بلحظات هنائه .... وفكر في ســـعادتها الناقصة .... وسرعان ما قاوم الاستدراج نحو الاعتراض مـــن جديـــد على حكمة الله ....

قائلاً يكفي أننا نقبل على نزواتنا بلا مخاوف ، وهناك أناس يدفعون ثمنها غاليًا .... وتمضي بهم رحلة الحياة ولا هم لهم إلا ملء البطون.

غمرته فجأة رائحة غريبة .... تشمم الهواء متوجسا .... صرخت سلوى ....

– اللبن

أسرعت عريانة تجري في الشقة كجنيـــة خرجـــت مـــن البحـــر والمشمشة الكبيرة خلفها تترجرج .... اطفأت البوتاجاز .... لم تجـــد أثرا للبن ولكنها وجدت الوعاء الألومنيوم قد احترق. واســـود ، وبـــدأ يطقطق وهو يتفحم.

* * *

(٦)

دخل الأستاذ ملاك مدرس الإنجليزي إلى حجرة الناظر .... سلم عليه وقال لشريف.

- أستاذ عبد الرحمن شمعة يسأل عنك.

- هل خرج ؟

- وهو في المدرسة الآن.

فرحة شريف بخروج عبد الرحمن مدرس العلوم جعلته يؤجل حواره الطويل مع حضرة الناظر الذي يرفض رحلة السد العالي وأسرع ليلتقي بصديقه.

اعتقل عبد الرحمن منذ شهرين ضمن مائتين من أعضاء الجماعات الدينية بتهمة قلب نظام الحكم ، ونشرت في الصحف صورهم مع بعض البنادق.

.... بعد التحقيق اكتشفوا براءته وأنه .... لا علاقة له بهذا التنظيم السري المزعوم.

توجه شريف إلى حجرة المدرسين ، دون أن يرى غير عبد الرحمن .... عثر عليه متعثرا في هزاله وشحوبه كأنه لم يأكل منذ عام .... عانقه طويلاً وسيطر على الدموع التي فجرها اللقاء..بعد الافتقاد القاسي تبادلا بعض العبارات عن الصحة والأحوال ، ولكن أسئلة جديدة تكدست فوق أسئلة قديمة ، وكان حتما البحث لها عن إجابات.

قال شريف : لابد أن ألقاك قبل ذهابك.

رد عبد الرحمن : وأنا أيضا أريدك ....

تلاقت اليدان والقلبان في العناق ، عبرت العيون عن مدى عمقه ثم افترقا بعد نهاية اليوم الدراسي ، سعى شريف إلى عبد الرحمن مثقلا بإحساس قديم بالإشفاق عليه لا يبرح قلبه.

في كل مرة يتحدث أو يستمع إليه يكتشف أنه كتلة غيظ هائلة تمشي على قدمين رغم بساطة مظهره وهدوء شخصيته وخفوت صوته الذي ينساب برومانسية لا تتفق مع ما يتضمن من معانٍ.

أفكاره كلها ثائرة وجادة ومدعمة بأحاديث نبوية وآيات قرآنية وكثيرا ما يدهش شريف ، كيف تواتيه ذاكرته بكل هذه النصوص عند طلبها .... دائما عنده المدد من النصوص المناسبة لكل موقف أو مشكلة بل والمؤيدة لكل فكرة مهما كانت بسيطة أو حتى حديثة من منتجات عصر التكنولوجيا.

وشهدت حواراتهما معارضة من شريف لأفكار شمعة التي تصر دائما على إدانة الناس.

– الناس في الغالب طيبون لولا القلة .... وحتى هذه القلة لا تقصد الخطأ أو الإساءة.

أصر عبد الرحمن أن القضية أكبر.

– لقد عبث الساسة بالتكوين الأصيل للإنسان المصري ، شوهوا معدنه ، ودفعوا بالناس إلى طرق غريبة لن توصلهم إلى الأمان أبدًا ، والمشكلة الأنكى أن أجهزة الإعلام وخاصة الصحافة تروج لكل أقوال الساسة وأفعالهم وتبتكر من التحليلات العبقرية ما يبرر للناس صواب كل ما يدعو إليه الساسة.

– لكن هناك دائمًا أمل.

قال عبد الرحمن بكل هدوء وثقة : لقد بدأ العد التنازلي

أسرع شريف في شبه احتجاج : لأي شيء ؟

أجاب شمعة بنفس الثقة كأنه يقرأ من كتاب منزل :

- لانهيار هذه الأمة وضياعها ، هذا أمر لا يتعين قبوله ببساطة ، بالله عليك قل لي .... هل تعجبك أحوال البلاد ؟

- لا .... ولكن الأزمة عالمية.

- هذا كلام المسئولين.

- هناك صحف معارضة يمكن أن تواجه وتقاوم .... هل قرأت مقال منير الأخير في الأهالي ؟

هز شمعة رأسه أسفا على معلومات صديقه :

- يبدو أنك لا تدرك أن الغرض الحقيقي من وراء التصريح لصحف المعارضة بالنقد ليس إلا الثرثرة فقط والتنفيس .... أي تفريغ الشحنة ، دون أن يسمع لها أحد أو يستجيب ، ويمكن تاريخيًا من ناحية أخرى أن تحتسب لهم كدعاة للديمقراطية التي أهدرها الآخرون.

- لكنها وسيلة كشف.

- هذا إذا كان أحد من المسئولين يريد أن يكشف شيئا .... هو مرتاح في موقعه وراض عن كل ما يجري حوله .... أنه مناخ كامل كونته طبقة سميكة من السعداء المتكاتفين .... بصرف النظر عن الخطب .... أنت نائم في العسل .... وأمثالك يجب أن يستيقظوا من هذا النوم .... تمتد لحظات من الصمت .... يكون خلالها كل منهما في وادٍ لا يلفه الصمت الذي يسود المكان.

عبد الرحمن يلتقط أنفاسه ويخفف من وطء هجومه على صديقه ، فهو يتمنى من كل قلبه ألا يفقده. بالعكس هو ينتظر اليوم الذي يصبح فيه شريف أبو العلا .... شريف شمعة .... شريف الذي تحتشد روحه بكل نبيل وروائع من المشاعر تجاه الناس والزملاء والكون كله لا ينقصها إلا أن تنهل من الدين .... هو في نظر شمعة أرض خصبة لنبت جديد ولكنه حتى الآن لم يحقق معه إلا تقدما محدودا.

كان شريف في واديه .... يجوس خلال أعماقه يبحث عن بحور العسل التي ينام فيها كما ظن شمعة .... والغفلة التي يتحدث عنها ، والحكام العابثين والديمقراطية الصورية .... هو يعرف تماما حسن ظنه بكل شيء ، ولعل هناك ما لا يستوجب حسن الظن ، لكن الصورة ليست كما يعبر عنها شمعة .... لابد أنه هو وزملاؤه يفكرون بشكل مختلف ، ويدينون لأفكار بعينيها ولابد أن لديهم هدفا.

.. طفا شريف فوق بحر الصمت وسأل صديقه :

– هل أنت ممن يسعون لتكوين حكومة دينية ؟

تمهل شمعة على غير عادته قبل أن يجيب ، لا بحثا عن إجابة وإنما دهشة لسؤال لم يتوقعه الآن ، وفي الوقت ذاته فرحا بالسؤال لأن معناه أن الصديق يقترب .... أو يريد أن يقترب ، وهذا السؤال خطوة ذات قيمة ويجب أن تلقي إجابته رعاية خاصة :

ليس هدفنا المصيري أن نشارك في حكومة أو حزب .... المهم أننا نطلب حكومة تسعى لتنفيذ أحكام الشريعة .... حكومة عادلة تعرف الحق وتبدأ بإصلاح نفسها ثم تنجز مصالح الجماهير في ضوء ما يمليه الإسلام لأنه الدستور الإلهي ، نظر شريف إلى ساعته وقال :

– المسألة في نظري تحتاج إلى نقاش وتفصيل

ابتسم شمعة سعيدا برغبة شريف وقال له :

– غدا أنا في انتظارك قبل صلاة المغرب .... سنصليه معا بمشيئة الله ثم نستمع إلى الدرس ونصلي العشاء.

– غدا سأكون عندك.

– إياك أن تقول كالمرة الفائتة لا يمنعني عنك إلا دور الشطرنج الذي طال

– ذكرتني .... لماذا لا تأتيني أنت لأعلمك الشطرنج ؟

– الشطرنج لعبة الفارغين

– ولكنه ينشط الذهن

– الذهن يعاني من النشاط الزائد

تأمل شريف ملامح شمعة المرهقة وسأله وهما خارجان من المدرسة : هل آذوك في السجن ؟

تنهد عبد الرحمن وقال بوداعة

– يكفي أنه سجن

من كل قلبه قال – أنا قلق عليك ، تطلع شمعة أمامه وتأمل الطريق الطويل الذي يمتد بلا نهاية ، تحوطه العمارات الشاهقة كالحراس العمالقة ثم قال :

– لن يضيرني أن أقضى عمري كله بالسجن .... ولعلمك نحن لا نحس به ولكن يضيرنا أن يعيش الناس في سجن ، وألا يجدوا من يحميهم من أنفسهم ومن المستغلين

حاول شريف أن يتصور معنى كلمة شمعة

– لعلمك نحن لا نحس بالسجن

تصور نفسه داخل السجن في زنزانة حقيرة صغيرة تجمعه مع عشرة ، يأكلون الخبز الجاف ويتبولون في دلو ، ويشربون من آخر تنتقل بينهم الحشرات ، يتبادلون الأفكار السوداء ، وتوزع عليهم سخافات السجانين من السب إلى الضرب .... طابور طويل يفضي إلى هدف واحد هو محو الآدمية .... القلق على الأهل سرطان يأكل المخ .... والساعات طويلة ومملة ، النهارات بلا قلوب تسلمهم لليال بلا نجوم .... كيف لا يحس شمعة وزملاؤه بهذا كله وهو الذي كاد يجن لأنه أثناء عملية الزائدة قضى ليلة بكاملها ممددا على ظهره ومستيقظا حتى الصباح وحيدا ، إلى أن جاءت زوجته ظهر اليوم التالي.

أحس أنه مرفه برغم تواضع حالته المالية ، وتأكد أن أفكاره رغم جسارتها لن تفضي به إلى الصدام مع النظام ، ولا مع أي إنسان .... أما شمعة فيستحق أن يقلق من أجله ، لأنه مقاتل عنيد من أجل أبسط الأمور ، ولا يقبل الحلول الوسط .... قال شريف : حاول أن تتفاءل.

دوت ضحكة عبد الرحمن بشكل لم يسبق أن سمعه شريف :

– يا أخي تفاؤلك الدائم يحيرني .... لا شك أن التفاؤل من الإيمان ، لكنك تتفاءل دائما حتى والعالم على وشك الانفجار.

تنفس شريف بعمق وقال :

– أجمل ما في الحياة حسن الظن بالأيام.

قال شمعة

– هناك من يتربص بأيامنا .... لكل منا وأنت معنا دور في مسيرة الإصلاح

مد شريف يده وصافحه بحرارة وعانقه كأنه يستعد لسفر طويل ، وقبل الافتراق على ناصية شارع شيخون ، قال شمعة :

– لا تنس

– غدا قبل المغرب

– بمشيئة الله

عاد إلى البيت .... لم تكن سلوى هناك .... كان يعلم أنها لم تذهب إلى مكتبها في وزارة الزراعة .... ربما صعدت إلى السطح.

خلع ملابسه وصعد إليها ، أسرع إليه الدجاج والبط وخلفها الذكر الكبير ذو الوجه الأحمر ، يتنفس بصوت عال كأنه يهدد.

لم يجد سلواه ، غرف من جوال الذرة طبقًا كبيرًا .... نثره لها فانتشروا فوق الحب ، يلتقطونه في خفة. لاحظ أن الديك الشرس يزاحم على الحب ، ولم يتقدم إلا بعد أن أكلت دجاجاته .... بل لقد ذهب إلى الركن البعيد من السطح حيث تقبع دجاجة وحيدة .... أخذ يزمجر من حولها لتذهب وتشارك أخواتها حتى استجابت .... تبين بعد ذلك أنها كسلانة ، انتهى الحب فألقى شريف المزيد إكرامًا للديك ذي النخوة.

لم يمنعه تفكيره في سلوى من أن يتأمل اكتشافه الجديد .... أن الطيور بلا أسنان ، تلتقط الحب وتبتلعه ويبقى في حواصلها إلى أن تذيبه العصارة المعوية.

كما رأى سلوى تفعل ، أمسك بعصاة غليظة وأسرع خلف بطة فوضعها على رقبتها وضغط فنامت في الأرض وأمسك بها .... وجد

حبات الذرة مكومة في أسفل رقبتها .... دهش لهذه التشكيلة الغريبة في الخلق. تشكيلات بلا نهاية تشمل كل مخلوق حتى لو كان نملة أو حتى بيكتريا وربما هناك الأقل.

اقشعر جسده من قدرة الخالق ، وأحس بضآلة الإنسان الذي يعتبر نفسه السلطان الأوحد.

صب الماء في أواني الطيور ووجد حزمة من البرسيم ملفوفة في قماشة مبتلة .... أخرجها وحشها لهم في الصينية الكبيرة ، التفوا حولها وهو يقطعها وحاول أطولهم أن يلتقط فتات البرسيم وهي لا تزال في الفضاء.

فتح عشة الأرانب .... ألقى لها عيدان البرسيم .... تأمل جمالها وصفاء عيونها وخلو بالها من كل شيء عدا الطعام .... أغلق عليها ، ولم يفكر في الاقتراب من بناني الحمام لأنه لا يعاني من مشكلة ، فهو يسعى إلى طعامه بنفسه .... يخلقه خلقا .... حتى المياه .... يذهب إلى أي مياه في العالم فيشرب ثم ينقل منها على عشرات المرات قطرات لأفراخه الصغيرة.

بحث عن المكان الذي تعودت الدجاجات أن تبيض فيه .... أخذ كل ما وجده ونزل ، أين تراها ذهبت ؟.... عندما دنا من باب الشقة سمع رنين التليفون .... رفع السماعة فسمع صوتها تخبره بأن زوج أختها الأستاذ مفرح اتصل بها وطلب حضورها فورا وكان قد اتصل في منتصف ليلة الأمس ولكن السماعة كانت طبعا مرفوعة .... يحتمل أن تلد أختها خلال ساعات قليلة.

قلي أربع بيضات في دهن البط .... وتناول غداءه وحيدًا في منقوع الصمت .... عثر على برتقالة كبيرة متخلفة من الاحتفال السنوي بعيد ركوبه سرير الزواج.

أعد الشاي وحمله مع علبة السجائر إلى حجرة النوم .... كان في حاجة إلى النوم ، لكنه كان في حاجة أيضًا – على الأقل وهو مستيقظ – إلى الشاي والسجائر .... شعر بأن جسمه على وشك أن يتفكك وتنفصل أجزاؤه ، وأنه لن يستطيع أن يجلس واعيا لدقيقة واحدة وهو الذي لم ينم بالأمس قبل الفجر وبعد انتهاء التوقيت الغرامي ، عليه الآن أن يموت من النوم ، وخطر بباله أنه هو الآخر قد أصبح من مخلفات الاحتفال السنوي.

(٧)

انخفضت سرعة السيارة وهي توشك على بلوغ منتصف الطريــق العريض .... الخالي المظلم. الصامت الموحش ، الذي يرتفع فجأة فتقع من جانبيه الوديان السحيقة ، ويــنخفض فجــأة فيختفــي بــين تــلال متجهمة .... تهادت السيارة حتى توقفت ، نزل السائق .... فتح غطاء الموتور وأطل فيه ، أغلق الغطاء ، ثم عاد إلى نافذته وأطل قائلاً لمن تجلس في الكرسي الخلفي ....

: – آسف يا مدام .... الكتاوت فيه شحن زيادة ويحتاج إلى ضبط لمدة خمس دقائق.

سكت فسألته : ومن الذي يصلحه ؟

: الكهربائي على بعد خمسين مترا في هذه الجهــة .... إذا كانــت ظروفك لا تسمح تفضلي خذي سيارة أخرى.

وقعت الشابة في حيرة .... أين هي هذه السيارة التي يمكن أن تقف لها؟

وكيف والشارع مخيف .... أخيرًا قالت :

: إذا كانت خمس دقائق فقط ، انتظرك .... ولكن أرجوك الوقــت متأخر .... دفع بكتفه السيارة قائلا

: فورا يا مدام

مضى يدفعها بيد ويقودها من الخــارج بيــد .... تــرك الطريــق المرصوف وهبط في طريق ترابي مسافة مائة متر تقريبًا .... أوقفهــا

أمام مبنى مظلم لا تبدو له أية معالم .... نزل وفتح الغطاء من جديد ، ثم تركها واختفى في الظلام دقيقتين.

عاد إليها وقال : أيقظته من النوم .... لو سمحت تنزلي لأن العدة تحت الكرسي ، ما إن نزلت من السيارة حتى انقض عليها. كتم فمها بيده وحملها إلى المبنى المظلم وألقاها على الأرض. اضطربت .... وتكثف كل فزع العالم في كيانها .... لا يمكن أن يكون هذا إنسانا .... ولا حتى حيوانا.

أخذت تضربه وتدفعه بيديها وقدميها ، ثم صرخت ، لكنها اكتشفت أن الصراخ لن يجدي ، لأن الأفق كله يبدو بلا نقطة نور واحدة إلا نور السيارات المسرعة ، ونقط ضوئية على بعد مئات الأمتار فوق جبل المقطم.

مضت تخمشه بأظافرها ، وتعضه بأسنانها وهو ماض في جنونه ولهاثه لا يحس بما تفعله. إلى هذا الحد هي ضعيفة لا تملك حماية نفسها .... إلى هذا الحد في الدنيا وحوش على هيئة آدمية .... أخيرًا أحست أن الأقدار ألهمتها الحل .... صرخت فيه : أنا زوجي ضابط بوليس وسوف يقتلك ويشرد أهلك يا كلب.

قال لها الجبل الذي يجثم على صدرها دون أن يهتز :

– كلهن يقلن ذلك.

عادت تصرخ عاليًا : البطاقة في الحقيبة .... إنه ضابط أقسم لك ....

– طظ

كانت بروحها تفتش عن معين .... لم تجد في السماء نجمة واحدة تشفق عليها من مساء تواطأ مع أعدائها وسلمها للفضيحة .... بحثت بيديها في الأرض عن حجر بلا جدوى ، جمعت ترابا بحفنتها وعفرت به وجهه .... لم يعبأ .... دفعته بركبتيها في بطنه .... لم يتأثر. لم يطل الوقت حتى أصبح فخذاها منفصلين ، سرعان ما دخل بينهما .... كادت تجن لأنه ليس فقط هائل القوة بالنسبة لها ، ولكن لأن له عشرة من الأيدي والأرجل.

أخيرًا تمكن من كل ما تملك .... بلغ بها الذعر مدى لا يبلغه ذعرها لو كان يقطع جسدها بساطور .... أمسكته من أذنيه بشدة وجذبته من رأسه .... أكلت وجهه أكلا وبالرغم من أنها تصورت أنها بالفعل نهشت لحمه فإنه لم يحاول التخلص منها ومن شهوته المجنونة ، كأن الأمر قد انتهى وانطلق السهم الذي لا يمكن أن يعود إلى موضعه.

جربت معه كل أشكال الدفاع والهجوم ، وبصقت في وجهه ، ودست التراب داخل عينيه عدة مرات. عبأت به فمه ، رفسته. وهو فوقها جبل لا تهتز منه شعرة ولا تتراجع خطته خطوة.

بعد أن تركها. لم تستطع أن تنهض .... أشفقت على نفسها وهي في الظلام وحيدة مغتصبة ومقهورة .... ممزقة ومفضوحة .... والمأساة تلطخ أيامها وكل شيء جميل في حياتها .... ذلك كله أصبح في الطين .... لم يشفع لها أي شيء .... طيبتها .... حب الناس لها وحبها للناس .... رعايتها لأبيها وأمها .... سلامة سلوكها .... لم يقف شيء إلى جوارها .... أخيرا وهي تتقلب عثرت بحجر كبير ، كان السائق قد أدار موتور السيارة بلا أية مشكلة ودار بها واعتدل

على الطريق .... نهضت مسرعة. جرت خلف السيارة ، قذفت الحجر في اتجاه السيارة فارتطم بالزجاج الخلفي وهشمه.

أسرعت تجري إلى الطريق العام .... خاف السائق أن يتوقف وينزل لها لأن السيارات العابرة كثيرة ، فضل أن يسرع بالهرب.

في هذه اللحظة فقط .... سقطت منهارة على قارعة الطريق وتكومت تبكي .... تبكي كما لم تبك من قبل ، وكما لا يمكن أن تبكي بعد ذلك لأي سبب مهما كان.

كانت دموعها أسلاكا طويلة من اللهب ، تنبع من الأقدام وتشق الأعماق مارة بالقلب المسحوق ، تكويه وتصعد إلى المآقي المحترقة .... كيف يتسنى لها الآن أن تنتقم ؟ وكيف يتسنى لها أن تعيش .... التراب أولى أن يواري مأساتها ويحفظ أهلها من وحلها وذيلها الطويل المدنس .... بكت بقوة والجسد كله ينتفض من ارتطامه بصخرة المأساة التي لا تتفتت أبدًا ، ولن تتفتت .... كان هذا يعني مزيدًا من الانهيار ، بل يعني الانهيار الأبدي.

لماذا لا تقتل نفسها ؟ هذا هو الحل .... لن يعلم أحد بشيء .... ولن يتلطخ أحد بالكارثة.

أسهل الحلول أن أموت قبل أن تحفر أظافر الفضيحة في صدور أهلي وزوجي شريف .... مستحيل أن تمس ثوبه ذرة من ترابي .... لابد أن أموت ....

كنت أتعثر في الناس أينما ذهبت ، كانوا حولي أكثر مما يجب حينما تمنيت أن يكون أحدهم إلى جواري لم أجد أثرًا لهم .... كنت وحيدة وفريسة سهلة تنهش في لحمها أسنان مسمومة.

الموت يا إلهي ليس إلا بإذنك .... فادفعني إليه وخلصني وسامحني وارحمهم من بعدي .... سأتمدد على هذا الطريــق .... لــن يكــون مطلوبا أكثر من هذا. ساعدني يا رب وأصدر أمرك للموت كي يمــر على بقايا جسدي.

توقفت إلى جوارها سيارة بيضاء صغيرة .... نزل شاب .... سمع عصف البكاء الذي بدا عليا خارج السيارة .... دنا منهــا .... حــدق بحذر في كومة اللحم الممزق .... تصور أنها كمين محكم وبارع .... هكذا أصبح يفكر كل الناس ، والــذي تلســعه الشــوربة يــنفخ فــي الزبادي .... تلفت حواليه بحثا عن معاونيها .... أطراف الكمين .... لم يجد أثرًا لحياة .... ربت على ظهرها ثم دعاها للركوب .... لم ترد عليه .... وبعد إلحاح منه صرخت فيه ، لكنه أدرك أهمية أن ينقلهــا من هذا المكان ، قال لها :

– سيارتي رقم ١٢٥٦٠ وأنا مهندس في شركة النصر للســيارات واسمي محمد الجزار ولن أتحرك من هنا إلا لأوصلك حيث تريدين.

رفضت بشراسة. جذبها بحنان .... متوسلا إليها أن تستجيب حتى يكسب ثوابا بصحبتها .... أخيرًا ركبت معه .... أدرك كل شيء .... ولم يفتح فمه بكلمة إلا سؤالا عن طريقها الذي أصبح فجأة قصيرًا .... قصيرًا جدًا.

* * *

(٨)

ذهب إلى الشرفة .... سار فيها قليلاً وأطل منها كثيرًا .... ســأل نفسه عشرات الأسئلة ، ولم يجد أية إجابة. قال مفرح إنها غادرتهم في العاشرة والنصف .... منتصف الليل يقترب .... هذا كثير ....

أطل آخر طلة ثم لبس الروب ونزل إلى الشارع .... كانت هنــاك نحو عشرين درجة تهبط بالشارع العالي إلى الشارع العام الموصل إلى ميدان صلاح الدين ....

نزل الدرجات الحجرية .... القطط مشغولة بالتهام طعامها وقلــب صفائح القمامة .... المعارك تدور بينها بلا رحمة ....

في لمحة عين تتحول القطط من جنس إلى جنس إذا ظهر الطعام ، وتدخلت المعدة لتحكم العالم الذي تهبط عليه الظلمة والقمامة.

طاف شريف حول النافورة التي في الميدان وتطلع إلى السماء كأنه يبحث فيها أيضًا عن رفيقته. مسح قباب القلعة التي بدت تحت ضــوء السماء الشفيف كمجموعة من الرءوس الصلعاء العملاقة ، تنفس بعمق وواصل التحديق في كل الأشباح التي تتحرك ، كــلاب : بشــر .... سيارات ....

تدحرج راجعا وقد ازداد إحساسه بالوحدة والضياع بــين الهياكــل الضخمة وخواء الشوارع وعدو الكلاب في إثر بعضها وعبثها الــودود دون مبالاة بأحد وقد أحست أنها تمتلك الليل .... لا شيء الآن يهددها أو يحاصرها أو يدفعها عن اللهو والغذاء والتمتع والسيطرة.

دخل شقته .... كان قلبه ينبض بشدة .... نادى على سلواه .... لم يرد عليه إلا قلقه وخوفه .... سقط عقله في قاع رأسه .... كل شــيء

الآن أصبح غيبا مجهولاً .... عزم على أن ينزل بعد نصف ساعة من الانتظار الصعب ويبلغ القسم .... نعم .... لا حل .... لا .... عليه أولاً أن يمر بالنقيب سليمان لابد أن يستشيره فيما يتعين عمله.

مزقته هو والسكون طرقات متلاحقة على الباب .... انتفض في مكانه وهو يكتشف أنه ضعيف ومتهاوٍ حتى دون أن يواجه أي شيء .... قشة تافهة فوق مياه الحياة المسكونة بالعفاريت .... الطف يا رب.

لم يكن بمقدوره ألا يفتح .... لكنه فتح .... فتح بابا هائلا من الدهشة والفزع .... دق قلبه بعنف وهو يفسح طريقا لدخول الكائن الممزق الذي تشوه وجهه برك الدموع والوحل .... فستانها الأخضر الذي تصبح وهي ترتديه أجمل امرأة في الوجود .... انفتح من صدرها حتى النهاية .... وتدلى قماش الكتف على صدرها وتعرى اللحم .... آه .... آهة لها سكين تشقه من حلقه حتى خصيتيه .... تعرى اللحم ولطخته بصمات زرقاء مكتومة وملعونة.

اندفعت بخطو المطعونة نحو حجرة النوم .... سقطت على السرير وأخفت وجهها فيه. لم يستطع السيطرة على أعصابه ولا على لسانه الذي سألها بصعوبة بالغة : ما. ماذا جـ .... جرى ؟

لم ترد .... اقتلع السؤال نفسه ثانية وهو غير قادر على الفهم وربما يرفض الفهم .... يريد أن يفهم بشيء آخر غير السؤال والجواب .... بشيء آخر غير العقل.

جذبها من ذراعها :

– أين كنت ؟

لم ترد .... جذبها بشدة .... قاومتـــه .... جـــذبها وصـــفعها .... صرخت فيه .... صفعها بقوة .... دفعته عنها :

– ابتعد عني .... ابتعد.

قامت فجأة وهي منكوشة الشعر وقد بدت عنيفة ومتوحشة فدفعتـــه بشراسة :

– اخرج .... لا أريدك.

أوقف دفعها له وقد تماسك بعد أن صفعها .... أمسكها من كتيفهـــا بقوة لم تكتشفها فيه.

– اهدائي .... لا داعي لهذا كله .... أريد إجابة محـــددة .... مـــا الذي جرى ؟ ماذا بك ؟.... أين كنت ؟

– لن أقول شيئا .... اخرج الآن واتركني .... لن أتكلم.

استطاع بصلابة أن يخرج قلبه الحاني عليها من اللعبة وأن يصفعها من جديد .... صرخ فيها وقد وضح أنه غير قادر على الصبر ....

– لا بد أن أعرف .... لا بد أن أعرف.

لم يكن في يدها إزاء إصراره وقد تحول إلى شخص آخـــر غيـــر شريف إلا أن تنهار وتستعد للسقوط ، ثم عدلت الخطة وتوجهت إلـــى صدره ، فتلقاها بحياد وأجلسها على السرير ، وسألها ورأســـها إلـــى الأرض بصوت أقل عصبية :

– ماذا جرى ؟

قالت وهي تضغط على كل حرف ليشرب من مرارتهـــا : شـــيء فظيع .... شيء لم أكن أظن أن يحدث يوما.

دق قلبه من جديد وبعنف وهو يتقدم حذرا ومرغما نحو المأساة قولي : ماذا جرى ؟

وأخيرًا أسلمت أمرها لله، أزاحت السد الذي يحجز الفيضان الهادر وكان كفيلاً بأن يغرق ويحرق كل ما يمر به ، اشتعلت فيه النار .... نيران كثيرة من كل اتجاه ومن كل نوع وبكل الألوان. لم يجد منها مهربا .... كان حتما أن تلتهم أعصابه وفكره قبل لحمه وعظامه ، وهو لا يستطيع دفعها .... ما الذي يمكن أن يفعله مع خصم مجهول ؟ وحتى لو كان خصمه معلوما وهو العالم أجمع .... من الذي يمكن أن يعيد إليه شرفه ! هل الله نفسه يستطيع ؟ .... لم يعد قادرًا على الإجابة .... هزها : هل تعرفينه ؟

- لا
- ما شكله ؟
- لا أعرف.
- ما اسمه ؟
- لا أعرف.
- ما رقم السيارة ؟
- لا أعرف.
- أين بيته ؟
- لا أعرف
- طويل ؟
- لا أعرف
- قصير ؟

– لا أعرف .... لا أعرف .... لعنة الله عليك.

– ... لعنكم جميعا ولعن الدنيا وكل من فيها ....

نفذ سكين اللعنة بأعماقه يمزق كل شيء.

تساءل – وهو منهار كخرقة مبتلة – كيف سيطل عليه النهار وهو بلا حول ولا قوة ، وقد فقد كل شيء في معركة حقيرة لم يدخلها .... كل مليمتر في حياته وقع عليه الكلاب ببصمات الدنس .... ما الذي يمكن أن يفعله ؟ ما الذي يمكن أن يستفيده الآن من أي فعل حتى لو وجدوا الرجل وأشعلوا فيه النار ؟ وكيف يجدونه ؟

إنها لا تعرف أي شيء

حانت منه التفاتة وهو يجلس على أحد كراسي السفرة إلى صورتها وهي تبتسم وعلى صدرها البط الصغير الأصفر وفي الجانب الآخر صورة عبد الناصر يضع رأسه بين كفيه مفكرا في الحركة التالية .... وقد اشتعل فؤاده من حرارة الموقف الصعب.

تنبه أن بداخل فمه شمس وصحراء ، وريقه يمر في حلقه حريرا فوق شوك .... عاني حتى ابتلعه وبلل شفتيه.

تذكر سليمان الملط وكان يسكن في الدور الأول. قفز السلم حافيا إليه حتى كاد يقع مرتين. فتحت له أمه وأخبرته أنه نام فقط من نصف ساعة ومن الصعب أن توقظه .... طلب منها السماح له بالدخول إليه ولم ينتظر موافقتها ....

هزه .... قال سليمان :

– لماذا توقظني يا حمار .... حطه في الحجز إلى الصباح.

رجه شريف رجا : سليمان .... انهض يا سليمان.

قال سليمان : هل أشتغل عند أمك !

اندفع شريف : مصيبة يا سليمان .... مصيبة.

هب سليمان الملط وتلفت حواليه .... بانت الدهشة عليه.

– شريف ! .... كم الساعة الآن ؟

– لا دخل لنا بالساعة يا سليمان .... قم معي .... في بيتي مصيبة ، أفاق سليمان قليلا وقال :

– عندك أنت .... مستحيل.

تنهد شريف : لم يعد هناك مستحيل .... حتى أنا الذي أمشى على الرصيف أو كما يقولون تحت الرصيف ، بحثت عني المصائب وتوجتني .... قم ياسليمان.

استجاب سليمان على أمل أن يكمل يقظته على السلم ، بعد أن لاحظ أنه لا يستطيع أن يفهم وهو على السرير .... ولعله سار في موكب شريف بوصفه جزءًا من حلم ثقيل .... كان يحترم شريف ويرى فيه نموذجا للمصري النظيف الواعي .... – وبإيجاز – إنسانا غير مزعج.

مضطرب الخطو سار يكاد يجره شريف ، ونصف مخمور بالنوم قال :

– تصور يا أستاذ شريف .... كل الجرائم التي تحدث .... تحدث فقط نكاية فينا وحقدا علينا .... وإذا لم تكن كذلك فما معنى أن يصبح عدد الجرائم أكبر من عدد السكان .... هذا يعني أن مرتكبيها ليسوا مجبرين عليها بقدر ما هم يتسلون بأعصابنا وراحتنا.

لم يهتم شريف بالاستماع إلى حكمة سليمان التي لا نفع فيها .... هو نفسه تعود أن يلتقي بالحكمة بالضبط في الوقت الذي لا يريدها فيه ، وانشغل المسكين بجر الضابط إلى مصيبته .... استطرد الضابط الذي لا زال غير جاد في اليقظة مستسلما للحلم المزعوم فلا يمكن في ظنه حتى وهو نائم .... أن يجتمع شريف والمشاكل.

– أصبح السادة المجرمون يا أستاذ شريف يفعلون ما يحلو لهم بمزاج .... بفن .... على مهلهم وبتخطيط وإبداع وليس اضطراريًا أو دفاعًا عن النفس أو مفاجأة .... كل شيء مرسوم ومخدوم ومصروف عليه .... لذلك يجب أن تنتقل دراسة الجريمة من الحقوق والبوليس إلى كليات الفنون والآداب والبحث العلمي والإدارة العليا لأنها نوع جديد من الفن والإدارة.

اكتفى شريف بأن يقول : كل الذي مر بك كوم .... وما حدث الليلة كوم آخر.

بالقرب من باب الشقة أوقف شريف محاولاته مع سليمان وقد تجاوزت المتعارف عليه كي يفيق.

قال سليمان : لا تشغل بالك .... كل شيء له حل.

: إلا ما حدث الليلة.

: هل قلبوا نظام الحكم ؟

: ولو حدث ذلك لماذا أدعوك إلى شقتي في هذه الساعة؟ !

: لكي لا تسمعك أمي.

ضحك سليمان على خفة ظله التي استيقظت في وقت غير مناســب وسبقت عقله إلى الوعي والمشاركة.

: يا سليمان حصلت لي مصيبة.

: أنا سمعت كلمة مصيبة هذه عشرين مرة منذ أيقظتني.

: امرأتي يا سليمان.

: مدام سلوى .... ماذا بها ؟

: هنا ؟.. من اعتدى عليها ؟.

توقف سليمان وهز رأسه ، وبان أنه أفاق فعلاً .... ولكنه سأل :

: اعتدى عليها ؟ !

: نعم.

: بالسكين ؟

: يا أخي .... أقول اعتدى عليها.

: تقصد نام معها بالإكراه.

تنهد شريف .... ونكس رأسه.

بدت على ملامح الضابط كل علامات الغيظ المكتوم والفــزع .... تمهل لحظات ثم قال.

– أود أن أراها.

أشار إلى حجرتها .... دخل .... كانت كما هي .... مأساة مكومة. طلب إليها أن تحكي له الموقف من بدايته إلى نهايته .... فهم منها أنها عضته في وجهه وهشمت بحجر الزجاج الخلفي للسيارة وماركتها بيجو صالون.

: أستاذ شريف .... اطمئن لو عاد للاختباء في بطن أمـــه سوف أعثر عليه وأخرجه وأجعل أكبر قطعة في جسمه مثـــل ظفـــرك الذي يطيره مقصك.

أخذها معه إلى القسم وحرر محضرًا بالواقعة ، وشـــرع ســـليمان الملط – بنخوة بهرت شريف – منذ الصباح الباكر يأمر كل محـــلات زجاج السيارات بضرورة الإبلاغ عن رقم أي ســـيارة أجـــرة بيجـــو صالون تستبدل عندهم زجاجها الخلفي .... وطلب من زملائه الضباط والجنود في كل الأقسام استلام أي بلاغ يأتي بهذه الصفة فورًا.

* *

(٩)

جروه معصوب العينين مقيد اليدين إلى حجرة واسعة تفضي إلى ممر طويل وهبطوا به سلالم ضيقة كثيرة الدرج ثم ساروا في ممر منخفض السقف وانعطفوا إلى ممر آخر طويل ، انتهى بهم إلى حجرة فسيحة تفرش أجنابها مراتب إسفنجية ومساند وفي الوسط نافورة صغيرة لا تطلع منها المياه.

في الصدر صورة قرد في فمه إصبع من الموز وتحته موز ويتدلى من فوقه موز وحوله من الموز أكوام.

أداروا القرد فانفتح باب كبير ، دخل منه الرجال الذين تكدست على صدورهم وأذرعهم كتل اللحم .... نماذج غير تقليدية للبشر .... ربع عراة تهتز في أعناقهم السلاسل الذهبية .... ويكاد ينخلع المعصوب في أيديهم الجبارة. سحب آخرهم وراءه لوحة القرد وتبع زملاءه داخلا إلى حجرة اجتماعات فخمة يفرش أرضها السجاد الأحمر وتتألق في سماواتها الثريات الضخمة ، وفي الصدر كرسي عرش لا يجب أن يمسه إلا ملك بن ملك بن أفاق ، ومن سلالة كانت تأكل مال النبي ، أما جده الأعلى فيمكن أن يكون إلهًا إغريقيًا أو معبودًا إفريقيا.

وقف أحد الرجال وراء الكرسي المهيب ودق بكعب حذائه دقتين متباعدتين ودقتين متلاحقتين .... رنت الدقات .... سمع الجميع صوت مزلاج يتحرك .... رفعوا مربعا من السجاد يكسو غطاء حديديًا .... ألقوا المعصوب من الفتحة .... أحس بروحه تنزع منه فجأة ، واستشعر النهاية المبكرة وجسده يلقي في هوة لا يراها.

تلقاه من فَتَحَ المزلاج في صدره ، ثم ألقاه على سلم حجري كـــان يقف عليه ....

تدحرج المعصوب وتألم ، وبعد أن استقر علـــى الأرض كســـجادة مطوية ومهملة قال :

– أنتم حثالة البشرية .... أنا أعرف ذلك دون أن أراكم.

– ها هو المطلوب يا باشا.

قال الرجال المحملون بكتل اللحم الحجرية بأصوات تؤكد أنهـــم لا يمكن أن يكونوا أحفادًا مباشرين لديناصور كان علـــى علاقـــة غيـــر شرعية ببغل استرالي ؟

تحولت العيون كلها – ما عدا المعصوب طبعا – نحو الباشا انتظارا لأوامره .... لم يظهر من الباشا إلا رأسه الذي يقبض بأســـنانه علـــى سيجار رفيع أما باقي الجسم فكان داخل برميل ذي كرش كبير. أشـــار الرأس بالسيجار إلى أعلى .... تقدم رجـــلان ممـــن كـــانوا بصـــحبة الباشا .... فك أحدهما العصابة وفك الآخر يدى شريف الذي أســـرع بالوقوف ، وكأنه بهذا سوف يكون قادرًا على المواجهة.

تطلع في الوجوه والمكان الغريب ، وحاول أن يتصـــور الطريـــق الطويل بالسيارة ! وبعده طريق ترابي مشيا علـــى الأقـــدام وصـــعود مجموعتين من الدرج وهبوط ثلاث واجتياز ممرات طويلة وقصـــيرة وحجرات صغيرة وكبيرة .... ثم هذا المكان وناس آخرون وبراميـــل كبيرة .... بحث عن الباشا ، إلى أن عثر برأسه .... فوجئ شـــريف بشكل الرجل .... كان وسيما جدا .... شعره أسود وملامحه متناســـقة

وابتسامته مريحة وعيناه سوداوان لامعتان .... كل ما فيه يتناقض مع المكان والناس.

لابد أنه نجم سينمائي.

أشار الباشا بالسيجارة إشارة ما ، اختفى على أثرها ثلاثة رجال تدل أجسامهم على أنهم لا يأكلون شيئا قط إلا عيدان القصب ، جاءوا بعد لحظات يبسطون في الفضاء قطعة عريضة من قماش قطني أبيض.

طلع الباشا عاريا من البرميل وامتد حتى دنا من السقف ونثر من حوله ماء أصفر .... أسرع الرجال يدورون حوله بالقماش الأبيض..دهش شريف .... أين كان يقف هذا العملاق داخل البرميل .... لا بد أنه كان مقرفصا إذن طيلة هذا الوقت .... وخز الفضول عقله كي يتجاوز ما هو فيه ويسأل .... أين كان هذا العملاق ؟. لكن أقربهم إليه كان بشعا.

جلس الباشا ووضع ساقا على ساق ، ووزن شريف بنظراته ثم قال بعظمة :

– هل تعرف لماذا أحضرناك ؟

ارتاح شريف للسؤال لأنه كان يظن أن المسألة ستطول ، وشكل الرجال مرعب بحيث تصور أنه ما دام قد وصل إلى هنا فقد انتهى.. لكن ها هو زعيمهم يسأله وسوف يجيبه ، وهو لم يتعود في حياته أن يكذب مهما كانت الأسباب ، تخلص من غضبه الذي كان عليه حتى قبل دقيقة ، ومعاملتهم له كأنه مجرم مع أنهم لا شك يعرفون أنه أستاذ .... لا .... هم لا يعرفون ، وإلا ما كانوا قد أحضروني

هنا .... الأمر به لبس واضح لأن مثل هؤلاء الرجال يكونـــون فـــي العادة – كي يحسنوا الخدمة – بهائم

أجاب بحياد : لا.

– لتسحب البلاغ.

مؤكد هنا خطأ.

– أي بلاغ !

ابتسم الباشا وقال بهدوء شديد :

– حذار من اللعب معي .... ليس عنـــدي وقـــت .... انتظـــرتكم شهرين ونصف وهذا فوق الاحتمال .... استهلكت في هذه المدة كل ما أملك في عمري كله من الرقة والذوق.

لم يهتم شريف بالتهديد ، لأن الحوار كله لا يخصه ، وهو ينتظـــر لحظة انتهاء المراسيم غير المقصودة ليعود إلى حاله دون حتى اعتذار.

– هذا الكلام لا داعي له .... ماذا تريدون مني ؟

– اسحب بلاغك.

– أي بلاغ ؟

ركن السيجار على جانب ، وأخذ نفسا عميقا ملأ به صدره

– بلاغك ضد واوا.

كما توقع بالضبط .... هو لا يعرف أحدا بهذا الاسم حتـــى يكتـــب ضده بلاغاً.

– حضرتك مؤكد غلطان.

صمت الباشا لحظة

– في حياتي لم أتحدث إلى حشرة مثلك بهذا الصبر.

توجس شريف : هو صحيح جميل ويبدو من عائلة عريقة .... لكنه هو الحشرة ، لابد أن أنبهه إلى وضعه ، قال بكبرياء غير مبالغ فيه – ستتحمل نتيجة خطئك .... أقسم لك أني لا أعرف واوا هذا ،

صرخ الباشا من قلب قلبه وكأنه يريد أن يبلغ صيحته للسماء البعيدة ....

– ألا تعرف أنور القرش ؟

اهتز الرجال وتداخلوا .... وانتزعت من أوتادها أجهزة شريف وتكدست في قاع بطنه ....

– أنور الذي

– نعم الذي

دارت الدنيا بالفتى الوحيد ، إذ تذكر مقوض أحلامه .... مصدر تعاسته الأوحد .... كان يتمنى أن يموت هذا المجرم كيا بالنار ، على أن تعود إليه الحياة بعد أيام ثم يدخل في مؤخرته خازوق لا يخرج إلا من رأسه ليموت أياما ، وبعدها تعود إليه الحياة من جديد ليموت تمزيقا بقطع من الزجاج ، ويحيا ثم يموت صعقا بالكهرباء ويحيا ، ليلقى في زفت مغلي ، وإذا مات يحكم عليه بالإعدام شنقا وإذا لم يمت ينقل إلى برميل زفت مغلي آخر وهكذا.

صرخ شريف بأعلى صوت يمكنه في هذه اللحظة أن يصدره:

– هذا مستحيل

وبهدوء يتسق مع شكله البريء قال الباشا

– سوف تكتشف بوسائلنا أنه أيسر من تناول حبة للصداع.

كان عليه أن يفكر لحظات لمراوغة ثقة الباشا الثقيلـــة .... لكنـــه اندفع:

– البلد فيها قانون.

– أنا القانون

– البلد فيها حكومة

– أنا الحكومة

تأكد شريف أن هذا الرجل مجنون .... كل هذه الثقة والردود التي تدينه لا تستند إلا إلى ضابط أو قاض أو بالأكثر عضو فـــي مجلـــس الشعب أو ربما اعتماد على هذه المخلوقات الآلية.

لم يكن أمامه إلا الصمت إزاء هذا الحصار ، ثم فوجئ بأن الصمت نفسه ليس متاحا دائما حين سقط فوقه صوت الباشا:

– خلصني

ظل مطأطئ الرأس

– أريد الرد خلال دقيقة على الأكثر .... أنا أعاملك كمـــا تـــرى بمنتهى الديمقراطية وأعطيك أيضا حرية الاعتراض إذا شئت.

استطاع شريف خلال الدقيقة أن يصل فقط بعد إمعان الفكـــر إلـــى سؤال يساعده في فتح ثغرة.

– وما علاقتك أنت بهذه المسألة ؟

– لا شأن لك.

– وأنا لن أسحب البلاغ.

– هكذا !

– هكذا

كان في قرارة نفسه يشعر بقدر من الرضا لمجرد أنه استطاع نطق هذه الكلمات في مواجهة رجل غير عادي ، رجل لا شك أنه محصن ضد الفقر والجوع والمرض والذل .... شكله ينبئ بأن وصية من جهة عليا تقضي بألا يسمح بموته إلا يوم القيامة ، بعد أن يشبع الجميع موتا. رجل من الجمال والأناقة والعظمة بحيث لا يصح أن يموت.

تقلب سيجار الباشا في فمه ، وفهم الشفرة رجل مربع يسير بتؤدة كذبابة .... تقدم وثبت عينيه في عيني شريف ، وبرق في الأفق بارق أو انطلق سهم لا أحد بالضبط يدري ، وإذا شريف على الأرض يتفجر الدم من بين شفتيه.

حرك الباشا سيجاره حركة ما ، فتقدم رجل عادي فغرف كوزا من البرميل ، وصب فوق وجه شريف الذي تنبه ببطء ، ومع ذلك ظل ممددًا يزن الأمور التي لا توزن.

انتظر الباشا لحظات ، ثم حرك السيجارة فتقدم نفس الرجل ورآه شريف وهو يغترف من البرميل الذي كان الباشا فيه ويصب فوق وجهه .... إذن فالبرميل الكبير يمتلئ لنهايته بالخمر .... بصعوبة جلس شريف .... لم تكن لديه الرغبة للقيام بعد ذلك أبدًا ، لقد عرف ما يكفيه كي يموت قبل أن تسوء الأمور ويعرف أكثر .... لم يجد لديه عزما يحمله .... كان مطعونا بما يكفي .... ما أكثر الكلاب!!.

سأله الباشا :

– ما رأيك في هذا التعارف .... هل ستسحب البلاغ ؟

هز شريف رأسه وقال :

– ليس بعد أن تقول لي لماذا.

بات واضحا للباشا ورجاله أن شريف على نحوله ليس سهلا قهره .... سأله الباشا :

- هل تعرف قيمتك ؟

- نعم ؟

- ما هي ؟

- صفر

- أنت غبي

متماسكا قال شريف : قدرها أنت

- لازم كل إنسان يعرف قيمته

- قلت لك

- أنت عندي تساوي ١٠ ملايين دولار

- مستحيل .... أنا أعرف نفسي تماما .... أنا مجرد صفر

- كنت صفرا .... أما الآن فقد أضيفت إلى يسارك ٦ أصفار وواحد

- أنا لا زلت صفرا

- بعد أن تسحب بلاغك ستعود لحجمك الطبيعي ....

فكر شريف أن يدخل من باب آخر

- هل تعرف ماذا فعل ؟

- .... لا يعنيني ما فعل واوا ، يعنيني فقط أن البوليس قبض عليه وهو قادم إليّ بعشرة ملايين دولار بضاعة

- لكنه

- طظ

– أليس لك أخت أو بنت

صرخ الباشا فجأة

– ستسحب بلاغك وإلا دفنتك حيا

– مستحيل

تقلب السيجار بين شفتي الباشا الفحل .... تقدم هيكل آخر .... من هذه الهياكل التي لا بد أنها لا تأكل إلا قمامة طازجة ودواجن ميتة وذئابا نصف مسلوقة .... قبض على قفا شريف بيد واحدة حملته حملا إلى برميل الخمر .... أغرق فيه رأسه إلى نصف صدره .... لم يقاوم شريف إلا بعد دقائق ، ثم انتفض وخرج من الخمر المختلط بعرق الباشا وإفرازات أخرى .... أعاده القابض عليه. قاومه شريف، لكن مقاومته كانت كتابة على الخمر .... ظل الرجل الآلة يغطه ويرفعه ثم يغطه ويرفعه نحو عشرين مرة وكأنه تدريب رياضي ، إلى أن بدل الباشا ساقيه وحرك السيجار حركة ما .... كان الباشا هادئا جدا انتظر حتى استرد وعيه ثم قال :

– البلاغ .

لاك شريف في فمه سنة من المذلة ، وهو يجاهد لاستبقاء حياته.

وبين نفس طالع ونفس هابط هز شريف رأسه رافضا

هب الباشا واقفا وكشر عن أنيابه واكتسى وجهه بحمرة الغضب .... ، .... تراجع الرجال عدة خطوات وهم يرتعدون حتى لقد أشفقوا مقدما على هذا الولد العنيد من سوء ما سيلقاه. وقد بدا واضحا أن الرجل الضخم يمسك بقلوبهم بين يديه كما يمسك بأعنة الخيول :

– أنا لست معلم خردة يا صرصار ، ولا صاحب سلخانة ولا تاجر فاكهة .... أنا لواء بوليس يا كلب.

أحس شريف في هذه اللحظة فقط بالضآلة الحقيقيـــة وبـــالخوف ، وأدرك أن الإنسان يمكن أن يتحول إلى وحش في لحظة وأن التشـــكيل الإلهي في البشر بلا حدود وعليه ألا يحكم على مجموعـــة المدرســـين والطلبة والناس البسطاء الذين يسيرون في الشارع علـــى أنهـــم كـــل النماذج البشرية لا .... لقد تبين جهله التام حتى برسالة الإنسان علـــى الأرض .... فإلى جانب رسالته المقدسة الشـــهيرة التـــي يدرســـونها للتلاميذ في المدارس ، هناك رسالة أخرى ينهض بها العتاة من أمثـــال سعادة الباشا.

إنها رسالة التخويف والقهر والسيطرة حتى يتم تحقيـــق التـــوازن المطلوب بين الخير والشر .... فيبدو أن غلبة الخير سوف تكون نهاية سينمائية بلا معنى .... قفزت أفكاره إلى مناطق أخرى بدأ معها يجـــد معنى للعبارات التي كان يسمع عنها مثل السمك الكبير والقطط السمان والحوت والغول. رجال الدولة .... حماة النظام .... لم يعـــد الجـــيش والمخابرات هم حماة النظام .... الحيتان والغيلان وأمثالهم هم الحمـــاة الحقيقيون.

أخيرًا وبعد رحلة الأفكار المدهشة والاكتشافات المرعبة التي دامت نحو نصف دقيقة .... لا يعرف أحد ولا شريف نفسه كيف قال بثقـــة شيطانية وغير شرعية :

– إذا كنت أنت لواء .... فأنا أستاذ.

ابتسم الباشا بأسنانه ونظر إلى محدثه نظرة استخفاف .... خلق الله بعد كل هذه السنين شخصا وجد لديه الشجاعة كي يرد عليه ويوشك أن يضع رأسه برأسه .... إذا كنت أنت لواء .... فأنا أستاذ .... كانت كل الألسنة تعيد الجملة على أصحابها من جديد .... لم يحدث هذا .... ساد صمت .... لا بد أن البعض تصور انطلاق ألسنة اللهب من عيني الباشا وفيه .... ومع ذلك لم يكن هناك من يحس بالباشا الذي كانت تنهش في جسمه عشرة ملايين دولار لها أسنان.

لكنه قال بكل هدوء :

– أنت أكبر من أن تكون طائشا .... فكر .... سوف أدفنك حيا وبعدك عشرة على الأقل من أحب أحبابك .... فكر.

– أنت لا تملك أي شيء.

قاطعه شريف بحدة لا يجب أن تصدر في حضرة لواء .... ولواء غير عادي يملك كل هؤلاء الرجال ، ويحركهم كالدمى .... أغلب الظن أن قوى مجهولة كانت تدفع أستاذ التاريخ ليرد بهذه القوة.

قال اللواء الذي دنا من شريف .... وضع يده على وجهه .... فاقشعر جسد شريف حين أحس بها ناعمة ووقحة.

– هل تعلم ما الذي ينتظرك إذا لم تسحب البلاغ ؟

ثم أجاب على نفسه إذ توقع أن شريف لن يجيب.

– سوف تتعرض لعذاب أقله أن ينام معك ٢٦ فقط من رجالي ، وكلهم من هذه العينة التي لم تعد الأمهات تحمل بأمثالهم ، واعلم أن ذلك ليس عقابا كله وإنما ينطوي على فائدة لك إذ سيتم بذلك

تخصيبك .... ويمكن عندئذ لا أن تنجب بعد تسعة أشهر ، بل بعد تسعة أيام.

قال للتلاميذ حين حدثهم عن عرابي

– أخطر شيء يا أخواني إرضاء شخص أو أشخاص على حساب المبادئ ، ولو تأملنا حركة التاريخ سنلاحظ أن الذي يحركها ويحتل أنصع الصفحات فيها هم من دافعوا عن المبادئ، لأنها الكرامة ولو دققنا النظر في كل الأحداث التي يسجلها التاريخ لن نجده يقيم وزنا إلا لكل حركة كانت تسعى لتحقيق الكرامة ، مثلاً أحمد عرابي .... دوره النضالي محدود ومع ذلك فقولته "لا" الشهيرة في وجه الخديو توفيق جعلت التاريخ يحتفي به .... لابد من "لا" عالية واضحة وغير مخنثة أو تقبل المساومة .... عبد الناصر قال لا مدوية للتخلف وللرجعية والاستعمار والفقر .... لا للجهل وللتمزق ....

قال شريف باطمئنان الذي يستعد للقاء الله :

– مستحيل .... مستحيل.

عندئذ زعق اللواء وقال : خذوه حالا من أمامي .... أدفنوه حيا.

انقض عليه الموكلون بالعقاب ودفعوه إلى الخارج ، فقد فهموا أن الباشا لم يعد يحتمل وجوده العنيد وحضوره المزعج ، واستدار اللواء ونفذ من باب جانبي إلى حجرة نوم أسطورية ، هي وحدها كفيلة بأن تشعل الحرب بين الحكومة واللواء إذا تسرب خبر عنها إلى وزارة السياحة.

ترك اللواء جسده الأبيض الجميل الناعم الذي لا أثر فيه لشعرة أو ندبة يسقط فوق السرير ، حيث خرج إليه سبعة من الرجال ذوي

ملامح ناعمة بيض البشرة .... حليقي الذقون نصف عراة .... نزلـــوا على كل سنتيمتر تدليكا وتنظيفا ظهرًا وبطنا .... قصوا الأظافر وحكوا الكعبين وكان منهم اثنان يروحان على الجسد الذي يغلي بمراوح مـــن الريش الحنون ، وآخر يحشو سيجارًا جديدًا بقضيب من المزاج العالي ويضعه في فمه ويجهز غيره.

* * *

(١٠)

استيقظ من نومه الممزق .... فوجد الشمس تجوس خلال الشـــقة ، تذكر – والصداع سجان يصر على تحطيم رأسه – كارثته الفريـــدة ، كان يحسب أن الشمس لن تسطع .... أطل على الشـــارع مـــن فتحـــة ضيقة ألفاه كما هو يموج بالحركة المجنونة .... الحياة مصـــرة علـــى الاستمرار رغم كل ما حدث ، يبدو أنها ستمضي حتى لو لم تجد غير القبور .... جلس منهارًا وهو يحس أن الذي تبقى منه الآن مجرد قشة لا وزن لها .... بناء مجوف وهش ومن الخطورة أن يـــرى أحـــدا أو يراه أحد.

بقى في البيت ثلاثة أيام دون أن يذهب إلى المدرسة .... يشـــرب الشاي ويدخن ولا يرد على التليفون ولا يكلم زوجته ولا تكلمه .... لا يخرج ولا تخرج هي من حجرة النوم إلا لتصـــنع لنفســـها القهـــوة أو لتدخل الحمام حريصة على ألا تلقاه.

ثلاثة أيام مغموسًا في رائحة الوحدة التي لا تقل بشاعة عن رائحة بول تخمر ، ثلاثة أيام وهو في حجرة الصالون نائم على ظهره وساقاه على كرسي .... وكأنه معلق في سقف وليس نائمـــا علـــى الأرض ، يتفرج ويتابع سحب الدخان المسافرة في المجهول ويرى بعينيه الجدار الأبله مصلوبة عليه صورته وحوله إطار من الوحشة والضياع.

بقيت معه هذه الأيام لا حبا في المنزل ولا شوقا للنـــوم والراحـــة ولكن هربا من العيون والألسنة التي لا شك تعلم .... ولا بـــد تعلـــم ، وليس أقسى منها حين تصطاد خبرًا ....

ثلاثة أيام كانت المرحلة الأولى في رحلـــة غيـــر متوقعـــة بـــدأت بجلوسه على عرش الفضيحة .... وهو كرسي فسيح فاقع اللون مزوق بالنقوش والحيوانات الغريبة تتدلى منه أجراس تهتز بين لحظة وأخرى ، متجاوبة مع إيقاع خفي حريصة علـــى ألا ينـــام صـــاحب الجلالـــة المفضوح.

ترن الأجراس وتصفق الألوان الفاقعة ويتعالى صـــياح الحيوانـــات كأنها تعدو خلف بعضها في غابة صغيرة.

لم تستطع سلوى أن تواصل مشوار العزلة المهجور ، في صـــباح رابع يوم من أيام الوحدة / السكين، وبعد ليلة مسهدة بالفكر المرهـــق ، حملت حقيبتها ودفعت خطواتها نحو الباب ومنه إلى هواء جديـــد .... كان يسمعها وكان يقرها على عزمها ويعرف أيضا إلى أين هي ذاهبة.

أحس بقدر من الرضا عـــن نفســـه لأنـــه لا يـــزال قـــادرا علـــى الصوم .... الصوم عن الطعام والعباد والـــدنيا كلهـــا .... لا شـــيء يجذبني إلى شيء .... تطلع إلى صورة لاعب الشطرنج .... ما العمل الآن ؟.... انعكست على مرايا جبهته مجموعة هائلة مـــن الأســـاطير والحكايات التي صاغت تراث البشر بداية من هرقل وأخيل إلى السيدة التي أرسلت السم إلى زوجها في العراق مغموسا بحلوى صنعتها بيديها ورسالة مرفقة تعبر عن حبها الملتهب وقلبها الـــذائب ، فقتلتـــه هـــو وخمسة من أصدقائه الذين دعاهم لوليمـــة حبـــه ، مـــرورًا بـــإيزيس وأوزوريس "وأبو زيد الهلالي" وليالي ألف ليلة. غامت المرايا المتألقة على جبهته وتراجعت الأسرار وقصص العمالقة .... تكورت المرايـــا

كأنها فوق نار ، وانصهرت .... سالت دموعا فضية وبقيت الرأس العظيمة مستندة إلى الكفين.

كان سليمان ومنير قد زارا شريف ثاني أيام العزلة واعترف سليمان أنه هو الذي أبلغ منير بوصفه أعز الأصدقاء ولا يصح أن نخفي عنه شيئًا ....

أعاده منيرة إلى الشطرنج ولو بعض الوقت لكنه لم يكمل معه مباراة واحدة ومع ذلك حرص منير وسليمان على زيارته ، لتخليصه من هم الوحدة الثقيلة ....

وفي كل مرة كان منير يحضر معه زجاجة بيرة ....

صب كأسا إلى حافته وتجرعه دفعة واحدة.

ورغم فرح شريف بالبيرة والهزة التي استشعرها في كيانه قال للملط : هل عندك حشيش ؟ تلفت الملط ومنير في دهشة .... إلى أن صرخ الملط قائلاً :

– طوبي للذين يشجعون الفساد .... ستكون الباطنية بين يديك بعد لحظات .... هلل منير.

– إذن سنعيش ليلة من ليالي العمر.

قال الملط :

– أنت تستهين ببلدك وإمكانياتها .... بلادك عامرة بالخيرات وأنا شخصيًا متفائل بمستقبلها.

زعق فيه منير :

– تحرك ولا داعي للثرثرة.

شرد شريف ورأى زوجته هناك .... أمامه مباشرة علـــى الضـــفة الأخرى للمأساة وبينهما يتهادى نهر اليأس اللـــزج .... كانـــت هنـــاك تنحني على الأرض تحدق في موكب شعرها المبعثر .... تمر عيناهـــا عليه شعرة شعرةِ ، دون أن تحركها الرغبة في جمعه.

هل يمكن للحشيش أن يزيح عن صدره شيئا مما يحمل ؟ لقد تصور في لحظة إلهام نادرة أنه مـــا دام بهـــذا الانتشـــار فلعلـــه ذا قـــدرات خاصة .... ولعل عبارة قالها الملط منذ سنة مـــا زالـــت عالقـــة فـــي لاوعيه ....

– أكبر رجال البلد ومن يسيرون أمورها يتعاطونـــه ، والحشـــيش بصرف النظر عن سعره وسريته هو الذي ينال الدعم الحقيقي.

كان سليمان الملط قد تمكن هو وزملاؤه الضباط بعد أسبوع واحـــد من القبض على الجاني .... وحوله القسم إلى النيابة التي أمرت بحبسه أربعة أيام على ذمة التحقيق ، وحولت النيابة الـــبلاغ إلـــى الطبيـــب الشرعي الذي قام بالكشف على سلوى وعلى المجرم الذي يدعى أنور القرش وكتب تقريرًا تضمن كل آثـــار العنـــف والمقاومـــة. والعـــض والخرابيش التي بوجهه والكدمات التي بفخـــذيها والملابـــس الممزقـــة وبعض فتات الزجاج المهشمة التي عثر عليها متناثرة تحت الكرســـي الخلفي للسيارة ، وحقيبة اليد التي وجدها الملط في أرض المعركة في اليوم التالي لنشوبها. أبدى الملط في كل مواقفه رجولة واهتماما غيـــر عادي ، وهو الذي وفر تقريبًا كل الأدلة وسلم كل مرحلة للأخـــرى ، ولولاه لما استطاعت الأسرة معرفة الطريق الذي كان عليها أن تســـلكه

في الظلام الذي يكتنف ردهات القـانون ، تكـبلهم وتعمـيهم أثقـال المأساة .... أخذ منير يتشممها كالكلب وقال الملط لشريف :

– الأمر ربما لا يعنيك ، لكن لا بأس أن تعرفه : ثبت من مراقبـة القرش أنه عضو كبير في عصابة دولية تعمل في ترويج المخدرات ، والقبض عليه يمثل طرف الخيط الذي يوصلنا لهـذه العصـابة التـي حيرتنا سنوات.

انشغل شريف بتأمل منير وهو يفرغ عدة سجائر ويعيـد حشـوها ويتحدث إليها وإلى شريف في آن :

– على يديك ستعود أيام المجد والكتابة .... سنة وأكثر وهي تبحث عني وأبحث عنها .... هل عرفت الآن يا أستاذ شـريف السـر فـي الأنيميا التي أصابت مقالاتي.

شرع الثلاثة يدخلون إلى عالم جديد لم يجمعهم من قبل وتبادلوا فيه الحضور والغياب والنزق .... خامر الجميع إحساس عميق بالانتمـاء لهذه البقعة من العالم .... هذا وطنهم الذي يجدون فيه ذواتهـم ، وقـد وجدوها أخيرًا.

درجة درجةٍ تسلل التلميذ الجديد خارجًا من شرنقة الصمت المستبد طلع البحر عليه وهو مضطجع على مرفق الأسى وشاطئ ممعن فـي الخواء .... جردته الأمواج من أي رغبة في التمسـك بالعزلـة .... ونزلت به إلى فرح المياه الراقصـة .... شـالته وحطتـه. دغـدغت أعصابه ، وعظامه ، داعبت ثدييه وبطنه وإبطه وأظافره ثم تسللت إلى روحه فدلكها وغسلتها من عفن الفكر الأسود فانتشت بالعذوبـة وأمـل الخلاص.

ثم جاءت الريح حاملة ملايين العصافير المقتولة فألقتها عليـــه .... حاولت الأمواج أن تخطفه وتهرب به للمدى الفسيح أو للقاع .... كانت العصافير قد أحاطت به ودفنت نفسها فيه .... ودرجة درجة استســـلم للموت أو للنوم الذي تتخلله انتفاضات طائشة وعبارات مبهمة ، كلمـــا رأى الجدران تتحرك نحوه والبلاطـــات الســـوداء والبيضـــاء تتبـــادل مواقعها ، وسمع طقطقة .... أسرع إلى الشرفة فوجـــدها ترحـــل .... توقف في الفضاء حائرا والبيت معه ينتظر عودة الشرفة.

تسللت الجدران خارجة فاحتار السقف أين يذهب ، أشفق عليهم من ثقله فصعد وطار بعيدًا وبانت السماء .... غمرهم الضـــوء الشـــاحب وسقطت النسمات العليلة واسترخى كل منهم على كرسيه المريح.

كان ثمة رجل يمسك بفرشاة ويرسم على الجدار الوحيد الباقي ....

.... يغمس الفرشاة في دلو ويرسم .... ثم يبطش بما يرسم تاركا مسافة في قلب اللوحة .... مضى يسوى في المساحة الباقية ويتقن في القطط والورود والنهود والفئران وقرون الثيران والقوارير والقطارات والعيون والمدى والقلوب النازفة وأوراق الكرنب والقلقاس ، ثم علـــق الفرشاة على قرن ثور ووقف في الساحة الخاليـــة بثبـــات شـــديد .... سكنت عيناه تماما وتوقف قلبه تدريجيا عن النبض ورئتاه عن التـــنفس ورق .... رق حتى أصبح جزءًا من اللوحة .... ظهر عبد الـــرحمن شمعة يمشي في استقامة .... انحنى .... حمل الدلو ومضى .

تجرع شريف كأسه الذي ألفاه ممتلئا يتراقص .... كـــان الميـــدان أمامه يتراقص أيضا .... وكانـــت الرؤيـــة يســـيرة بعـــدما تســـللت الجدران .... فجأة ارتفعت القلعة عن الأرض وكأنها قطعة في مسرح

العرائس واهتزت كبندول الساعة .... الميدان لا زال بالأشجار يتراقص .... تلفت شريف وهو يحس أنه هو الآخر يكاد يطير فإذا مسجد الرفاعي يعلو وكذلك السلطان حسن وقسم الشرطة .... ما هذا !

المباني تترك الشوارع وتتحرك .... تتقدمها القلعة .... كل شيء يتحرك بقبابه ومآذنه الوقورة العمارات تستدير وتتبع القلعة .... الناس في الشرفات يضحكون ببلاهة .... الموكب يمضي ويكبر ويتضخم .... يطول حتى بدا كأنه لا يتحرك .... كل شيء يمضى نحو النيل .... وهناك كان يقف لهم أبو الهول .... كان ضخما بشكل غير طبيعي وقد وقف على قدميه وبقيت أنفه مكسورة واكتست ملامح وجهه بأطياف من وجه عبد الناصر وعينيه .... كانت القلعة تمضي في ثقة وإصرار نحو النيل وأبو الهول يقف بصلابة وعناد في طريقها .... يحاول منعها ، لكنها لحظات فقط تلك التي ردها فيها وما لبثت أن أزاحته من طريقها واستأنف الموكب المسير حيث استقبلته دوامة باتساع القاهرة .... وشرعت في ابتلاع المعالم الراسخة .... اتسعت الرؤية بالخلاء والصمت . وأبو الهول هناك ذاهل وفي عينيه أشباح دموع .

* * *

(١١)

قال : يا رب

قالت : يا رب

لكنهما لم يستطيعا أن يستمرا في الدعاء .... فلم يكن لدى كل منهما خطة واضحة لمطالبهما من الرحمن الرحيم .... هل يطلبان الستر ؟ ستر ماذا ؟

.... هل يطلبان الصحة أم الغنى ؟ لماذا ؟ أم تراهما يطلبان أن يعودا سعيدين كما كانا قبل أن ترفرف فوق صارى المدينة أعلام فضيحتهما .... على أية حال لا بد من الدعاء .. ولا تملك البقرة المذبوحة إلا أن ترفع خوارها اليائس إلى السماء .. قال : يا رب : وقالت : يا رب . أنت عالم ..

قال : أظنها يا رب المرة الأولى التي لا يعلم فيها الإنسان ماذا يطلب .. فالمطالب بالذات لها قائمة طويلة يحار الإنسان كيف يختار بينها، لكنه يختار ما يشاء ، وربما يختارها جميعا .

بعد أيام لبي دعوتهما .. استجاب لضراعتها التي لم يطلبا خلالها شيئا محددًا ، لكنهما استندا إلى علمه .. ولذلك ألهمهما الله أن يطلبا الموت .. هذا على الأقل هو المطلب المحدد ذو الملامح ، وهو تقريبًا أكثر المطالب اتساقا مع ظروفهما .

الموت هو المحطة الأخيرة وهو في نفس الوقت المطلب الشرعي بعد أن قفز القطار المسرع فوق كل المحطات ثم توقف عند الفضيحة .. من الذي اختار لنا هذا النوع من القدر ؟

كان قد تصور في فترة من الفترات أنه مؤهل تماما ضد النكسات وأنه محصن ضد الانهيار ، وأن عالمه من البساطة والقوة بحيث يمكنه أن يبتلع أي مصيبة ، بل إن المصائب نفسها لن تحاول الاقتراب منه ؛ لأنه لا يفكر في الأطماع التي تجذبها نحوه .. إنه يعيش بمهارة عالية متحكما في رغباته التي يمكن أن يفضي هوسها إلى التورط في الكوارث ، وهو لا يفتح بابه أبدًا لهذه الريح ومن هذا النوع سلوى .. يا رب ما الذي كان يتعين عليّ أن أفعله لأكون في مأمن ؟ سلوى .. سلوى الآن تتجمع فيها كل علامات الاستفهام التي خلقت في جميع اللغات البشرية .

جاء شمعة يزوره بعد أن عرف من تلميذ ، أبوه صول مع الملط .. قال له لقد جئت بالضبط في اللحظة التي كنت أتمنى فيها أن تجيء .. قال له شمعة : لا حوار بيننا اليوم إلا بعد أن تعود زوجتك .. تحدث إليه طويلا وألقى في أعماقه قيمة عودتها وعودته إلى المدرسة .. أرضته جدا زيارة شمعة .. وساوره شعور بالشفقة على سلوى وهي المريضة بالقلب .. ندم على جفائه معها .. لم يقل لها كلمة واحدة .. لم يرضخ لكلام شمعة بقدر ما كان كلاما كشفا لغطاء قلبه المحزون .. ألم تدرك أيها المتغطرس أنها لم تسع بقدميها إلى حيث يسطع هذا العار ؟ .. لقد انقض عليها الغدر في المسافة الواقعة بين الواجب نحو أختها والعودة إلى صدرك . رسمت الأقدار ملامح الكارثة لتحجب اسميكما من قائمة السعادة .

منطقة شبه خالية ووقت متأخر وحيوان عربيد .. وهل كان يمكن أن يستشهد شرفها المثلوم هذا الاستشهاد الفظيع إلا في ركن منزو

وتحت أظافر كلب وحشي ، رباه البعض في حظيرة خنازير على بابها ضوء رسمي أخضر .. وهكذا أحكمت الأقدار التصويب وجاءت الطلقة في القلب .. أفق.

ما ذنبها ؟ .. كيف تتركها نهب الوحدة القاسية والهواجس والدمار الروحي الرهيب ؟ .. لا تدعها موشكة على الانهيار لأن الحبل الذي يربطها بالدنيا قد تهرأ.

هل مثلها يتجرع كل القسوة من الجميع ، وقد عهدناها غصنا مورقا للحب والبراءة ! ..

سل العقل قبل القلب .. ولا تبالغ في البحث عما يحيرك ويبددك أنت بشر .. ولن ينفعك أن تفني عمرك وأنت تحدق في الأبد الممتد أمامك ، ويظل يمتد أمامك ويلوح لك بلسانه .

.. مضى إلى سلوى .. قال لها : هيا .. عادت معه ساكتة تحمل فوق كتفيها وجها منكسرا يرتسم عليه عذاب أزلي .. لم يستطع رغم هدوئه المدحور أن يخفي الشوق الذي يتمرد في عينيه ويصبو إليها .. تأملها بشكل خفي بحثا عن الملامح التي عشقها وارتوى برؤيتها .. كانت الفتنة لا تزال هناك ولكنها كانت منهزمة وغائمة .

تركها تفتح هي باب الشقة وتبعها .. كان يريد أن يجدد لها ثقته فيها واعترافه بأنها تملك بيته وأشياء أخرى ثمينة .. ولكنها روعت .. على الأقل في داخلها – لمنظر الشقة .. فلم يستطع شريف أن يكون مرتبا أو نظيفاً .. ترك الفوضى تهذي في كل سنتيمتر من البيت الذي كان نموذجا مبالغا فيه للنظام والجمال .. وما الذي كان باستطاعته أن

يفعله إزاء الرائحة الوحيدة التي تسبح في الهــواء .. رائحـــة غريبـــة يمتزج فيها الضعف بالإثم .

دخلا الشقة وأغلقا بابها عليهما .. نظرت إليه بعتاب . أخذها بـــين أحضانه وكأنه أخيرًا وجدها .. انهمر دمعها ودمعه ، اهتز جســـداهما بعنف .. لم تنبس الشفاه بحرف .. عاتبته بالدموع وســـألها بالـــدموع أجابته بالدموع وكانت نظراتها إلى الشقة دموع ، ونظراته إلى لونهـــا الشاحب وعودها الزاوي دموع .

كانت عودتها إلى البيت دعوة لبدء حياة جديدة ، وبدأت بالفعل هذه الحياة ، لكن الليالي لم تستطع أن تستعيد حلاوتها السابقة .. ظلت كـــل طيورها الجميلة مهاجرة ، لا تريد أن تحط من جديد في الموضع الذي فيه روعت بطلقات الرصاص .

لم تشهد الأمسيات معارك حربية ولا سلمية .. لأن الود الذي كـــان بينهما كان ود العشرة والإعزاز المعتق ، وربما التعود ، أمـــا العشـــق الذي كان يدس لهما الشياطين في جسديهما إذا التقيا فوق الفراش كـــل مساء لتعزف لهما أجمل الأساطير الحيوانية وتطرز بها حياتهما ، فقـــد أصبح الآن صداقة خالصة لا تهفو إلا إلى أن ترى الصباح الجديد في سلام .

حرص المساء على أن يجمعهما في فراش واحد كل ليلة لعل عقدة القلوب تنحل ، فتمتد يداه إلى جداولها أو تلمس هي ثمره .. لكنهما بقيا ممددين يجتران طعم الحب تحت ظلال أشجاره العارية ، يتمنيـــان أن يجدا قدرة على غرس بذور جديدة تنبت بستانا خالدا مـــن الـــذكريات اليانعة ، وبدا واضحا أنهما يسترخيان على أحد الشطآن المجهولة وقـــد

ردهما الموج الهادر عن لمس الماء ، فآثرا اللهو بمحـــارات الصـــمت والبراءة المزيفة .

في إحدى الليالي استيقظت قبل الفجر وقد تاقت إلى صدره ، فألقت فخذها عليه .. استدار كآلة وأعطاها ظهره .. أدركت أنه لا زال غير قادر على النسيان حتى وهو نائم .

أذن الفجر وهي مفتوحة العينين تتحدث إلى السقف عن حالهـــا .. تسللت إلى جسدها نسمة باردة فدنت منه ثم عادت وقد توجست من رد فعله ، لكنها كانت ترتعش برغبة حميمة في أن تلمس دنياها الأثيرة بين ذراعيه ..

لم يبق أمامها إلا أن تقتات من الذكريات

تذكرت لمسات يده الحنون ، وحين تتذكر يده وهي تمـــر بخـــدها يرقص خدها الذي مرت عليه يده في خيالها ، وعندما تذكرت أصابعه الماهرة وهي تتلمس شفتيها بحذر كأنها تمشي على حقل ألغام تـــوردت شفتاها وتفتحت كوردة مسها الربيع .. وعندما هبطت أصـــابعه إلـــى رقبتها بدأ قلبها يضطرب ، وفي الخيال مضت يده إلى مفتتح صـــدرها فتكورت قليلاً عظام ضلوعها وانتفض ثدياها ، وهو يتسلل نحوهما في نعومة وثقة ، وأحست به في الخيال يقبض براحتيه عليهما فانخلعـــت روحها .. ودوى جرس المنبه في الســـكون ، فارتعـــد جســـدها كـــأن الجدران سقطت فجأة من حولها ورآها الناس تحت السماء عارية .

ظلت في السرير ممددة لتستعيد الهدوء اللازم للقيام .. بقى قلبهـــا الصغير المحتقن يكاد يبدو فوق صدرها وهو يخفق باضطراب .

كان عليها أن تنهض لتعد لزوجها الفطور وتوقظـــه ليـــذهب إلـــى المدرسة .. أما هي فقد أخذت إجازة شهرًا .

لم يكن بحاجة كي توقظه لأنه كان مستيقظا قبلها ، وقبل أن يســـقط فوقه فخذها الساخن .. وقرر الهروب من صهد حرارته . حاول بعــد أن انصرفت عنه أن ينام ، لكن ذلك تعذر تمامًا ، عملت الأفكار فـــي رأسه بعنف ، وكلما أوشكت على الانتهاء استدرجت مواضيع جديدة ، واستدعت مواضيع قديمة .. عاملته الأفكار بقسوة ولم تستجب لرغبته كأنها تتحداه .

كان للصباح طعمه المعتاد الذي يحمله منذ ثلاثة أســـابيع .. وقــد حرص زملاؤه أن يلتقوا به كل صباح ويسألونه عن أحواله .. كـــانوا في الحقيقة يبحثون عن أي أخبار جديدة يمكن أن تمثـــل تطـــورا فـــي الأحداث لم يعلموا منها إلا الحدث الأصلي فقط . ولا زال شريف يبدو لهم كأنه يجلس فوق بركان ، وما زالت سجائره التي تشتعل بســـرعة وتنطفئ بسرعة تكشف حالة أعصابه التي تنوء بما يحمل من أسرار ، وما هي إلا دخان لنار تتقد بأعماقه وتحرق فيه بوتقة السحر التي كانت تجذب زملاءه وطلبته إليه .

ها هو يمضي بينهم مادة بلا صوت ، وجسدا بـــلا روح ، وعقـــلا يفتقد الوهج ونظرات صماء وملامح غائمة وخطوا مضطربا ولسانًا بلا أجنحة .

ما الذي كان عليه أن يفعل إزاء ما حدث له ؟ هل ينسى ويقبل على الدنيا كأن شيئا لم يكن ؟ .. ربما كان ذلك جائزا لـــو فقـــد عزيـــزا أو أصابته عاهة ، لكن المصاب هنا .. أثمن من أن يناقش .

كثيرون هم الذين عذروه ودافعوا عن أي ذرة خطأ تنسب إليه ، ومضى بينهم مرغما يتابع أيامه في سأم محتج ، وبدا واضحا أنه استسلم لوالديه اللذين تبنياه .. الصمت والزمن المشمئز .

بحث عنه عبد الرحمن شمعة وسأله عن الجديد ، أخبره أن الكلب استطاع بمحاميه العريق في تخليص الكلاب أمثاله أن ينكر كل ما اتهم به، وقدم شهود نفي أكدوا أن الجاني كان معهم في مدينة السويس منذ يومين قبل الحادث حتى ظهر اليوم التالي .. ولم تكن معه سيارته ، وأنها كانت أمام بيته ، وقدم المحامي صورة البلاغ الذي حرره المجرم بعد عودته من السويس ، والذي قال فيه إنه بعد أن وصل إلى بيته أخذ حماما ليجدد نشاطه ، ثم نزل ليركب سيارته ويمارس عمله اليومي ، فإذا به يجد السيارة محطمة الزجاج ، وتحرر المحضر من مصر الجديدة .

قال له شمعة : هل رأيت ؟

قال شريف مستسلما : رأيت.

سألته : ما هو الحل المناسب في رأيك ؟

قال شريف : لا قدرة لي على التفكير.

كان حقيقة يشعر أنه يمتلك ذاكرة منهكة وعقله يخوض في بحيرات من الطين .

قال عبد الرحمن : البلد تحتاج إلى عمل كثير .. لا بد أن تتكاتف كل الجهود وتتحد كل الأيدي .

قال شريف : ليست مسألة أيدي وجهود .. لا بد من قيادة واعية .. فكر شامل وإرادة

ابتسم شمعة وهو يقول في ثقة : توكل على الله .. بلادنا عامرة بالكفاءات والقدرات والعقول المفكرة .

تنفس شريف بعمق وقد أحس بتباشير الأمل .. الأمل الذي تعود أن يتعلق به دائما .. وما أحوجه إليه في هذه الأيام .

سأله شمعة : ألا زلت غير حريص على صلاتك ؟

كان يشيح شريف بوجهه خجلا لكنه قال :

أنا يا عبد الرحمن مشتت الذهن وأخشى أن أكون فيها غير خاشع .. أنا غير مؤهل على الإطلاق .

قال شمعة : قبلها .. كلنا غير مؤهلين .. هي التي تجعلنا نصلح لها .. هي التي تهذبنا وتصقلنا وتسوينا على قدها .. اترك لها نفسك وسلم أمرك لصاحب الأمر ولا تستطيع أن تسلم له أمرك إلا بعد أن تستجيب لأوامره وفي صدرها الصلاة .

حاول شريف أن يقاوم .

تمسك شمعة بالحديث قائلاً : أنت يا شريف تمتلك إمكانيات نفسية وذهنية عالية وجديرة بأن تجعل منك شخصا آخر .

شرد شريف وهو يحس أن الممر ضيق جدا نحو الصلاح والإصلاح .. لا من قبيل التشاؤم ولكنه نقص في ثقته بقدرته على الوفاء بمطالب الله ، مع أنه لا يفارقه .

قال شمعة : هل تثق بالله.

اندفع شريف يقول : ماذا جرى لك يا شمعة ؟ !!

سأله شمعة : فهل تثق بي ؟ بوصفي عبدا طبعا ، أجابه شريف بحماس : نعم.

فقال عبد الرحمن : اتبعني إذن وتوكل على الله .. أنا في انتظارك .. الليلة .. سأعرفك بشخص ذي شأن عظيم .. عالم كبير لا يعرف أحدًا إلا الله :

قال شريف وهو ينصرف إلى حصته :

– سأحضر إن شاء الله .

– لن يمنعك شيء

– لا ..

قبل صلاة المغرب دخل شريف أول حارة يمين في شارع شيخون بالقرب من سبيل أم عباس ، استقبله شمعة واثنان في الثياب البيضاء واللحي السوداء الكثيفة والوجوه السمحة والأصوات الهادئة .

قال له عبد الرحمن : أحسنت فقد كنا على وشك الانصراف .. هيا بنا .

ذهبوا إلى فيلا جميلة في آخر شارع شيخون ، في حديقتها الخلفية الفسيحة جلسة ظليلة تتناثر في أشجارها لمبات الكهرباء ، خلعوا الأحذية ولبسوا القباقيب الخشبية وتوضأ من أراد ، صلوا المغرب جماعة خلف إمام طويل القامة ، رفيع العود عريض الجبهة أبيض الوجه كثيف اللحية واسع العينين رخيم الصوت .. كانت الصلاة متعة لشريف وطقسا جديدا وجذابا . أحس فعلا بأن الصلاة رياضة روحية وسمو نحو جلال الموقف المقدس في حضرة العلى الكريم .

لم يكن يتصور أنه سيصلي مع أكثر من سبعين فردا ، كلهم في الثياب البيضاء والملامح المتشابهة وخاصة تلك اللحي التي يتسلل الشيب إلى بعضها ، فتبدو أجمل .. المكان كله يعبق برائحة طيبة

وهدوء وصفاء روحي .. ألقى الإمام ، حديثا تفسير حول آية "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة" .. حديث رقيق وعميق طاف خلاله بعوالم كثيرة وتنقل بين قضايا عديدة . كلها في صلب الدين والأخلاق والمحبة .. ما هذا الجمال الذي يلتقي حوله الشباب والشيوخ .. كان يحسب الجلسة كلها نقاشا حادا حول المارقين من المسئولين والحكام .. وتصور أنه في أول ليلة سيتسلم مسدسا ومهمة .

صلوا العشاء وأعقب ختم الصلاة ، ذكر وأسئلة ولطف وجلال ، ثم انتهى اللقاء ومر الرجال على الإمام فسلموا عليه وشريف أيضًا الذي أوشك أن يقبله .. سأله شمعة : هل أنت راض عن جلستنا ويمكنك أن تعود مرة أخرى ؟

أجابه شريف بحماس : كل الرضا .. متى تلتقون ؟

– كل ليلة.

– سأحضر إن شاء الله .. أنا في حاجة إلى أن أشرب من هذا النهر .

– وما رأيك في الحديث ؟

– ممتاز .. ولكن هل هذا كل ما هناك ؟

– هناك المزيد.

– في الدين ؟

– في الدين.

تمهل شريف ثم قال : وماذا بعد ؟

قال شمعة وهو يستدير عائدا : يكفي ما رأيت

أمسك شريف بذراعه

– عبد الرحمن .. لا بد أن أعرف .. لم أتعود أن أسير في طريق مجهول .

– التفقه في الدين هو التفقه في الحياة .. فهل في ذلك طريق مجهول.

– أنا مصر.

– ستعرف كل شيء في حينه.

– أرجو ألا يكون هنا ما يسيء ؟

– لا تتعجل.

– البداية لا بد لها من نهاية.

– نحمد الله أننا نعرف البداية والخاتمة في الغيب.

– يا عبد الرحمن.

قاطعه عبد الرحمن وهما بالقرب من داره:

– يا شريف .. أسألك مرة أخرى هل تثق بي ؟

– سلام عليكم..

– إذن يسعدني أن أراك غدا .

– إن شاء الله.

في الطريق مر على أخته أليفة .. لم يجدها .. كانت قد ذهبت لمتابعة أعمال السباكة في العمارة الجديدة التي تبنيها .

* * *

(١٢)

كانت تصنع لها فنجانا من القهوة .. سمعت طفلا لا يستطيع التحكم في فيض ضحكاته .. تحولت إلى نافذة المطبخ وكانت عليهـا سـتائر رقيقة ترقص وتعانق نفسها بمداعبة الهواء .. من وراء الستار أطلـت سلوى رأت أما تلاعب وليدها في الشرفة ، تكاد تجن به ولا أحد فـي الدنيا غيرهما .

حملت الأم وليدها ودخلت ، وضعت سلوى كوب القهـوة الفـارغ واستدارت عائدة إلى الشقة لتفاجأ بذاكرتها ترفع أمامها علـم الطمـث الأحمر ، الطمث .. يا نهار أسود .

مر أكثر من شهر على الحادث المشئوم والزائر الشهري لم يصل، بدأ في عبها يلعب فأر القلق والرعب .. كان غيابه لو حدث .. يعنـي أروع أحداث العالم ، لكنه في حالتها هي بالذات ومنذ شهر فقط يعنـي كارثة الكوارث .

دارت في الشقة تبحث عن شيء .. لو كان عند أمها تليفون .. فأر الرعب يكبر بسرعة ويمتلئ به كيانها كله .. جلست تحـت صـورتها التي تضحك للبط .. وضعت رأسها في كفيها لتوقف عبـث الفـأر .. مستحيل هذا الذي يهددها .. أصبح الذي حدث بالنسبة لها أمرا مضـى وفات أما الذي هي موشكة عليه فهو المصيبة الحقيقية .

هل هذه إرادتك يا رب ؟ . إرادتك أن يمر على زواجي أكثر مـن سبع سنين فلا أحمل من زوجي الذي أحبه ولا أتمنى رجلا في الـدنيا سواه .. وأحمل من هذا الجلف القذر .. لا أظنك ترضى بهذا يا رب .. أنها إذا كانت صاعقة على فماذا ستكون على زوجي إذا علم ! ؟ .. انه

يتعذب أكثر مني .. وكيف أرضى للجنين أن يعيش علـــى أعصـــابي ويأكل من لحمي ودمي .. لا يحق ذلك لأحد إلا إذا كان ولد شريف .

كانت أمها بعد شهر من زواجها قد دعتها في إلحاح أن يكـــون أول مولود لها حتى يؤنس وحدتها ، وقالت أختها صحراء ، إن أول بنـــت ستلدها سلوى سأحجزها لولدي شمس .

وقال شريف : خذوا ما تشاءون مـــن أولادي .. المهـــم أن أولهـــم سيكون اسمه

اندفع الجميع يقولون : نعرفه .. نعرفه

كم كنت أتمنى أن يكون منك يا زوجي الحبيـــب المســـكين ليتنـــي أعرف ما الذي يدور برأسك الآن .. أنت لا شك تتعذب فماذا يحدث لو لم يأت الطمث ؟ ماذا يحدث لو حملت وعرف شريف ؟ . لن يكفينـــي موتي كي أهرب من عذابي وعذابه .

مع ذلك سوف أموت .. حتما سأموت ، ويعيش شريف ليتألم .. أم تراه سوف ينسى إذا اختفيت !

هل يمكن أن يكون كل ما أنا فيه مجرد كابوس لعين ؟ هل تحدث المفاجأة الإلهية المدهشة واكتشف أنني الآن نائمة ، ويجثم على أحلامي

ذلك الكابوس .. ؟ .. أتمنى أن أكون نائمة .. كيف أعرف إذا كنت نائمة أم واعية ؟

سمعت جرس الباب ، أسرعت كأنها تهرب من أفكارها التعسة .. لتفتح الباب .. وجدت أمها : استقبلتها بالدموع وتلقتها أمها في صدرها ووراءها عم فريد يقول :

– ندخل أولا وبعدها افتحوا الحنفيات.

قالت سلوى : اتفضل يا بابا .. شريف خرج مع صاحبه شمعة منذ الصباح .

تركته يجلس في الصالة وسحبت أمها إلى حجرة نومها وأغلقتها عليهما :

– الحقيني يا ماما .. الدورة لم تصل .

بهتت الأم .. كانت قد نسيت الحادث .. ولما تذكرته ارتعدت خوفا .. اضطربت رأسها بالموقف المفاجئ

المفروض أنها الأم التي يتوجب عليها أن تكون المستشار .. أسرعت تسألها :

– منذ متى ؟

– موعدها فات منذ أسبوع .

– لا تقلقي .. أحيانا تتأخر.

كانت تعرف أنها تكذب وكانت تعرف أن ابنتها تعرف أنها تكذب لتخفف عليها عبء اللحظة إلى أن يأتي الله بالفرج ..

لم ينفعها كلام أمها ولطمت خديها .

– يا نهار أسود .. يا نهار أسود .

ندبت بسبابتها كمن تبكي على ميت عزيز .

– يا نهار أسود .. يا نهار أسود .. أين أذهب ؟ .. مصيبة مصيبة أكبر من هذه الدنيا بكاملها وقعت فوق رأسي .

– يا ابنتي اهدئي .. أحيانا العادة تتأخر .. اصبري أسبوعًا آخر .. وبعدها سيأتي الحل .. أنا متأكدة .

– حل .. من أين يأتي الحل ؟

– استغفري .. اهدئي واستغفري.

– يا رب أنت عالم بي وبزوجي.

– ربك ستار.

– افرضي لا قدر الله حصل.

كادت أمها تنهار .. وبدا أنها لا تستطيع أن تجيب ، ثم قالت لتهرب من الفكرة القاسية .

– ساعتها يحلها ألف حلال .. لا تقدري البلاء قبل وقوعه.

– لقد وقع وانتهى الأمر.

عادت تندب الميت الغالي .

– يا نهار أسود..يا نهار أسود

انكسر قلب الأم الصامد لنشيج ابنتها . فرت الدموع من عينيها وهي ترى ابنتها تتمزق أمامها .. انكفأت سلوى على السرير تجهش ببكاء مركز وصاخب يغترف من قلوب عشرة نفوس مقهورة ومعذبة .

لم تحاول أمها أن تواسيها . بدا لها أن الأمر لا يحتاج إلى مواساة ولكنه في حاجة ماسة لبكاء لا يتوقف ، فانهارت هي الأخرى باكية

يمزقها شعور بالأسى والإشفاق على ابنتها مشوب بسؤال لا تجسر على توجيهه إلى الله .

– ألم يكن يكفي أن زوجها حرمها من الولد حتى تصيبها هذه المصيبة فتهدد حياتها إلى نهاية العمر .

حاولت أن تطرد هذا السؤال الغاضب بما فيه من شبهة اعتراض على حكمة الخلاق العظيم .. عادت إلى قواعدها الدينية على عجل ، قائلة وهي تمسح دموعها التي بلغت شفتيها وشربت منها بضع قطرات :

– استغفرك يا رب .

رغم هذه المناحة السرية داخل حجرة نوم سلوى ، هذا التحطيم الذي أصاب قلب البنت وأمها بسبب تأخر الطمث في الظهور ، فإن المأساة الحقيقية يمكن أن يدركها بسهولة كل من عرف عم فريد ، كان يجلس في الصالة غير عظيم كعادته ولا واضعا ساقا على ساق وإنما مكوما "كبؤجة" ملابس مهملة .. مظلم الوجه باهت الملامح لا ينطق بحرف ولا يأتي بحركة وكان لا يفتأ يداعب الذباب الذي يقف على وجهه .

ماضيا في شروده يتأمل الصور والسقف وهو غير مدرب على التأمل ، ولعله كان يهرب فيها من الوحدة والفكر ، ثم يضع رأسه على كفه ويمعن في محاولة الغياب .

بينه وبين نفسه حمد الله لأن شريف لم يكن موجودا ، لأنه لم يكن خبيرا بالمواساة وبالأحاديث التي تدور حول ضرورة النسيان والاعتماد على الله والصبر .

كان مؤمنا بها تماما ولكن غير قادر على ترديدها ، ولم يجرب أن يقولها مرة .. وفي المرة الوحيدة التي حاول فيها أن يخفف عن زميل ماتت زوجته تداخلت العبارات والتبست ، فأخطأ وحاول التصحيح فأخطأ ، وتوالت الأخطاء حتى اضطر للقيام والانصراف .

من يومها لا يقدم العزاء لأحد إلا وسط مجموعة ، وهي التي تتحمل ترديد عبارات المناسبة ، وينشغل هو في ضبط أعصابه وكبح لسانه حتى لا يقول نكتة .

تغييرات كثيرة لم يكن أحد مهما تشاءم يظن أنها تحدث للعم فريد .. كان الكل يتصور أنه سيطلق النكات ويحكي الطرائف حتى وهم يدفعونه يوم القيامة إلى جهنم ، محاولين أن ينزعوا معطفه الأسطوري .

فغير مسموح إطلاقا الدخول إلى جهنم بأي ملابس وخاصة معاطف العاملين بالسكة الحديد .

كان العم فريد هياجا إنسانيًا جميلا ، وكان قدومه فرحة للكبار قبل الصغار كما كان بالنسبة للمسئولين في السكة الحديد .. ولم تسمح الفرصة كي يعرف الكثيرون ما الذي كان يحدث عندما يذهب لزيارة ابنته صحراء التي تنجب كثيرا دائما قبل المدة القانونية .. كانت تمنع أولادها من أن يطلوا من الشرفة خشية أن يروه وهو قادم ، فيسقطوا عليه ليلتقوا به في أقرب وقت . وإذا دخل تسلقوه كأنهم قطط تتسلق شجرة .

* * *

(١٣)

في سيارة نصف نقل جلس في الكرسي الخلفـــي رجـــلان بينهمـــا شريف مقيد اليدين معصوب العينين ، انطلق السائق بهـــم دون كلمـــة حتى بلغوا فيلا مهجورة في آخر جبل المقطم . مضوا به إلـــى فنـــاء فسيح ، أرضه غير مستوية كأنه كان مسرحا لحفائر تبحث عن آثـــار تاريخية أو معالم جيولوجية . في أحد جوانبه شجرة وحيـــدة لا أحـــد يعرف قصة وجودها هناك في هذا القفر .

على بعد قريب منها حفرة واسعة ، ألقوا فيها شريف بعد أن رفعوا العصابة وقيدوا قدميه بسلسلة حديدية لها قفل ومثبتة من نهايتها بقاعدة خرسانية مما يدل على أنها دائمة الاستعمال ، ولم يكـــن شـــريف أول المختطفين ولن يكون آخرهم .

بعد نحو ساعة جاء اثنان وألقيا فوق رأسه صفيحتين مـــن القمامـــة قال أحدهما .

- أنت الآن لا شك جائع .

خلص رأسه بصعوبة من القاذورات التي أحاطت والتصقت بوجهه ، ثم جاء ثان وصب على رأسه ملء دلو من سائل أصفر وقال له : قد تحتاج أن تشرب .

نفذت رائحته إلى أنفه رغما عنه .. كان الدلو مملوءا بالبول .. هل يمكن أن يكون الإنسان قد وصل إلى هذا الحد من البشاعة ؟ ! وأجاب على سؤاله بأن الفضل كله للعقل الذي منحه الله للإنسان .. تملكه الغيظ الذي لا يقدر على تفجيره .. فتحدث إلى نفسه عن العقل الـــذي حـــول مساره .. وبدلا من أن يكون مثل جرار يصعد بعربات البشـــرية إلـــى

أعلى ، فانه يتجــه إلى أسفل .. أسفل مكان ومكانة .. هــل لــهذا كله من نهــاية ؟ ! .. ومن الذي يتعين عليه أن يضع النهاية ؟ لعله الله .. مؤكد أنه هو .. إذن لماذا يتفرج علينا ونحن نتردى ؟ . ما الذي يجــده فينا من جمال أو تسلية !

تنهد وبصق من حصار البول والقمامة .. تأكد الآن أنــه بالفعــل صرصاركما قال اللواء .. أقل من صرصار .

الصرصار يجري في أي اتجاه يشاء ، يختبــئ ويظهــر .. يأكــل ويلعب أيضا بل ويصرخ ، وربما يموت .. أما أنا .. أنا ماذا ؟

أنا منذ شهرين ونصف لا شيء .. لا شيء على الإطــلاق .. بــل اللا شيء أفضل لأنه لا يدرك أنه لا شيء .. وأنا على يقين من تفاهتي وهوان حالي . من فعل بي هذا ؟ وقد كانت الحياة تمضي برغم بعض ظروفها المعقدة رائعة وشائقة .. لقد حدث كل شيء فجأة .. فهل حقــا يراقبنا الله ويرعانا !! سلوى . ها هي سلوى تطير .

سلوى .. ذلك الغصن المورق من الحب ، يلتف حول الألــم الفــظ ويلهمه أحلام البراءة ..

توافدت على عجل أسراب الذباب وبدأت تكتشف الضيف الجديد .. ذباب كبير كالنحل له لدغ ، أخذ يلعق كل ما يجده من قمامة ثم يقــف على عيني شريف ، وأنفه وأذنيه ليبتلع ما أكل ويتأمل الضيف و تفــد الأسراب بعد الأسراب إلى القمامة لتحمل ما تقدر عليه وتجد راحتهــا فوق معالمه وبالضبط فوق أنفه وفي مواجهة عينيه المتوجعتين .

أجنحة الذباب فضية رقيقة ، تبرق تحت الشمس وتتسلل في رقتهــا عروق زرقاء ، وعيونها تتحرك بسرعة حركة غير مفهومة وأفواههــا

لا تكف وأياديها .. تلك الشعيرات الرهيفة تعمل كأذرع أخطبوط نشيط ..

على رمش عينه وقفت ذبابة .. لم يستطع أن يحافظ عليها مفتوحة لوقت طويل ، قبل أن يفكر في إغماضها كانت الذبابة قد اختفت . نسى كل شيء في حياته .. وفرغ عقله من كل فكرة ، وشرع هذا الضيف الجديد يتأمل أهله الجدد وسكان حيه .

بعد قليل تسلل إليه فأر ، نفذ بلا تحفظات إلى صدره ويبدو أن رائحة بعينها استدرجته إلى هناك .. تقلب شريف .. لكنه أدرك بعد لحظة أنه ليس ثمة داع لذلك .. الفأر حر يتجه إلى حيث يشاء ، وجاء ثالث ورابع .. فئران كبيرة كأنها لا تأكل إلا الأرانب والكلاب ولعلها تأكل الرجال .

لابد أن هذه الحفرة شهدت كثيرين قبلي ، أرغموا على الدفن فيها .. فالشجرة هنا قديمة والسلسلة أيضًا .. وعند وصولي لبى الذباب الدعوة التي لم توجه له ، ولعل القمامة أرسلت إليه بطريقتها ، فقدم دون إبطاء ، وها هي وفود الفئران أسرعت ترحب وتتعرف على الضحية ..

إذن فهذه الحفرة لها سجل حافل ولابد أن لها مكانة في تاريخ البلاد وتحتاج بعد رحيلي إلى عالم أثري يرافقه مؤرخ وجيولوجي وحانوتي لعمل حفريات ذات قيمة ، ولا بد أن أعظم من قدموا خدمات لبلادهم سنعثر هنا على جثثهم .

السماء صافية وأشعة الشمس مسنونة وكأنها تشارك في إنضاج الذبيحة ليسهل تناولها ..

جاء رجل مربع وهو المخصص للقمامة وألقى عليه دلوا ممتلئـــا ، وجاء الأطول وصب فوقه دلوا من البول .. صرخ

– من أين لكم يا أولاد الكلب هذه البشاعة ونحن في الصحراء ؟ .

أجاب المختص بالبول على الفور وكأنه كان يعرف مسبقا أنه سيسأله :

– ألم تعرفه ! ؟ إنه بول أمك.

يداه مقيدتان وقدماه .. ماذا يمكنه أن يفعل ؟

ليست لديه أية قدرة على المقاومة أو الفعل .. لا بيده ولا باللفظ ولا بالدموع ولا حتى بقلبه .. أي مقاومة هذه ولمن وهـــو لا يســـتطيع أن يدفع الذباب الذي يلح عليه ويمر على كل أعضائه ، متنقلاً بينها وبين القمامة .. والفئران التي لا تكف عن الدخول إلى صدره وقضم أطرافه وأذنيه .

ها هي السماء تتفرج وأشـــعة الشـــمس لا تـــرحم .. كـــان علـــى الطبيعة .. أن تجاملني بأي موقف .. أن تتكدس الغيوم وتمنع الشـــمس من قسوتها الزائدة .. أن تمطر السماء فيختفي الحارسان اللذان لا تغفل عيونهما عني لحظة .. أن يبرق برق يخطف أبصارهما .. ألا أستحق أن يهبط ملك من السماء فينقذني من الشياطين ؟ ينزل حصان لامرئي أمتطيه ويحملني بعيدًا ، فينقذ إنسانا من بطش أخيه .

لماذا لم تعد تحدث هذه المواقف العظيمة للبسطاء من البشر الـــذين لا يملكون إلا قلبا طاهرا ؟ هل لا بد أن يكون نبيا حتى يحظى بالرضا والمساعدات المتميزة ؟ . لم يعد هناك أنبياء .. وها أنذا وحـــدي مـــع البشر السادة .

ها أنذا في قلب العزلة الأبدية التي أستحقها وتستحقني .. علـــى أن أروض نفسي على الاقتران بها ، قد يبدو الاستسلام لها صـــعبا فـــي البداية لكن الأمر سرعان ما يصبح عادة .. بل كيفا .. دون أن ينتبـــه ركبت ثلاثة فئران على شفتيه وأخذت تلعقهمـــا وكـــأن الشـــهد منهـــا يسيل .. مضى في تأملاته دون أن يعبأ.

اكتشف فجأة أن الزمن الذي بدا له مرحا ومنطلقا على سجيته يعيد التعرف على نفسه ، إنما هو زمن هارب بجلده من عصور الشـــياطين ليسقط بين يدى أحفادهم الأفذاذ .

حاصرته الهواجس والأسئلة وعلا صخبها حتى غدت حمما أبديـــة تتفجر من أعمق أعماقه لتعلو حتى يظن أنها رحلت فإذا بها تسقط عليه من جديد ، بقوة وعنف .

بحث عن الفئران التي كانت تمتص الرحيـــق مـــن شـــفتيه .. لـــم يجدها .. أين تراها ذهبت ؟ هل ستعود ؟ .. كثرت الفئـــران .. فلـــم يعرف أيها كان يقبل شفتيه .

إنه جوعان وظمآن ومرهق ومحطم ومجوف ومتهاو .. تراءى لـــه موج تعاسته هادرا يضرب شواطئه بعنف ويهز قواربه بقسوة .. أدرك أنه ممثل الخلق أجمعين الذي سيحمل عنهم كل المقـــرر علـــيهم مـــن تعاسة .. ما أحوجه الآن إلى سيجارة ودلو شاي !

شرد وأظلمت عيناه وسرى فيه خدر فاستسلم منهارا .. لكنـــه رأى حارسيه يسحبان امرأة مملحة من برميل ويأخـــذان فـــي التهامهـــا .. شهيتهما المفتوحة لم تشفها امرأة كاملة الأعضاء .. شرب الأول وأخذ

نفسا عميقا وتجشأ ، نهض الثاني فشرب ثم تجشأ ، وسحبا من البرميل امرأة مملحة أخرى .. وضعاها أمامهما وشرعا يقضمان أعضاءها .

كان الأول يبدأ من أعلى والثاني يبدأ من أسفل ليلتقيا عند المؤخرة .. لم يكن ذراع المرأة يحتاج لغير جذبة واحدة ينخلع بعدها من الكتف ليمسكه أحدهما بين يديه ويأكله على مرتين ، ثم الذراع الثاني على مرتين وكل ثدي على مرة والكتف على مرة ، وباقي الصدر على مرتين والظهر على ثلاث مرات .. أما الثاني فكان يأكل الساق والقدم على ثلاث مرات والفخذ على ثلاث مرات ويقتسمان المؤخرة .

شرب كل منهما ثلاث زجاجات من البيرة وتجشأ وبال في الدلو إلى نحو نصفه وعثر شريف أخيرًا على إجابة لسؤاله .. إلى البرميل تحاملا وسحبا امرأة مملحة ثالثة وألقيا كل النفايات فوق الأستاذ .. أفاق شريف مذعورا وقد آلمه مشهد النساء المملحات ، جاء المساء وكان حتما أن يجيء ، لكن المؤكد أنه جاء مبكرا عن موعده .

هل يمكن وسط هذه القمامة والفئران والوحشين الآدميين أن يحتفظ ببقايا إرادة تساعده على ألا يستسلم للهزيمة ؟ هل يمكن إذا امتلك بعض الإرادة أن يستبقى في رصيد أعصابه قدرة ولو باهتة على التفكر ؟

هل يمكن بالمتبقي من الفكر الخامل أن يجد سبيلا للمقاومة ؟ .. ليس ثمة أمل في ذلك .. وما دام لا يمتلك القدرة على المقاومة فعليه أن يسرع بالموت فأحقر الميتات يموتها من لا يقاوم .

بينما كان غارقا في عزفه المنفرد سقط فوقه المزيد من القمامة .

لم يتحرك ولم يشعر بتغير في خطة عقابه .. لا يزال محط اهتمام الحارسين العجيبين .

قال الحارس لزميله : لقد انتهى قبل الموعد .. هذا ما كنت أتمنى، أن يرحمه الله من الباشا الملعون ولو بالموت .

جلس المربع أمام الحفرة وسحب عودين من القصب وأخذ يمص ويختلس الكلمات بين الرشفات المدوية في الليل الساكن ، .. قال :

– سيُجن الباشا .

– يجب أن يجن .. كل أمواله وضعها في العملية

يسأله المربع الذي يبدو أكثر غباء .

: ألم يطلب من مساعد الوزير أن يُهرب واوا ؟

أجابه الأطول الذي أعجبته أخيرًا مسألة مص القصب فسحب عودا :

– وعده بتهريبه بعد أن يكتب له الباشا أولا جنينة التين التي في العجمي

– وهل كتب ؟

– كتب

– ولم يخرج واوا.

رشف الأطول بعمق وقال :

– طلب مساعد الوزير من الوزير التدخل ، فرفض بسبب بعض الظروف السياسية الحساسة .. قرر مساعد الوزير البحث عن وسيلة ثانية .. وعدته رأس كبيرة بتهريبه إذا وافق المساعد على الانسحاب من مناقصة السفن الخردة التي تنوي الرأس الكبيرة ابتلاعها .

سأل المربع بعد لحظات وقد أحس بالدوران الذي لفه كدوامة :

– النهاية .. أنا تعبت وقرفت.

– النهاية إن الباشا صبر كثيرا حتى أصبح على بعد محطة واحـــدة من مستشفى الأمراض العقلية .

سأل الغبي : والحل ؟

قال الأطول وهو يرمي مصاصة القصب على شريف :

– الحل أمامك.

* * *

٢)

بعد أسبوع آخر لم تعرف فيه سلوى إلا الفكر والفزع .

والاستسلام التام لخطة مجهولة لتحويلها إلى حشرة ، جاءت أمهـــا فلم تجد الطمث في الشقة .. كان لا يزال مصرا على استبقاء الســـكين في قلب المطعون لينزف الدم من القلب والروح ، لا مـــن أي مكـــان آخر .. بدت الأم أكثر تماسكا هذه المرة وقد تأكدت أن ابنتها حامل .. وعزمت على أن تنقذ ابنتها مما يحيق بها .. لم يعد هناك مفـــر مـــن الإجهاض .

اقترحت عليها بعض الوصفات البلدية ، واندفعت ابنتهـــا وراءهـــا تبحث عن النجاة وتجرب وتفشل .. لا الطمث ينـــزل ولا الإجهـــاض يخلصها من كل آثار واوا التي تقوى وتعمق جذورها كل يوم .

اعترفت الأم بينها وبين نفسها أنها تواجه أكبر مصيبة في حياتها ، بل إن ابنتها المسكينة تتعرض لأكبر مصيبة يمكن أن تلحق بـــامرأة ..

حاولت أن تبعد عن رأسها الخاطر الذي هاجمها وأفزعها باحتمـــال أن تفكر سلوى

(١٤)

في الانتحار .. لم تفقد الأمل في الله الذي تتصور في كل لحظة أنه سوف يبعث إليهم عددا من ملائكته ليحلوا المشكلة علـــى نحـــو رائـــع وكريم يليق بقدراته الإلهية .

زارت بعض الأطباء رفضوا جميعا هذا العمل اللا إنساني ، وأخيرًا وافق الثامن أو التاسع وكان قد مر شهران .

بعد أيام فوجئ شريف وهو في المدرسة بالناظر يستدعيه إليه فورا ولما ذهب قدم له سماعة التليفون .

– تعال فورا .. سلوى بالمستشفى في حالة سيئة .

لم يهتم بأن يعرف اسم المتحدث .. بالكاد تنبه إلى ضرورة السؤال عن اسم المستشفى وأسرع إليها تنهشه الهواجس .. هل يكـــون قلبهـــا ؟ .. لم يحدث في أي مرة أن تعبت فجأة ووصلت حالتهـــا إلـــى مـــا يوصف بأنه سيئ .. هل تكون قد فكرت في الانتحار ؟ لا أظن .. لقد حاولت في الفترة الأخيرة مساعدتها على التخلص من كآبتها .. لا أمل أمامنا لنستمر في الحياة إلا أن ننسى ونهيئ جوا مناسبا لجروحنا كـــي تندمل .

مضى يسأل الغيب الذي لا يجيب ، ويفتش في المجهول بلا جدوى ، لما لم يجد في نهاية كل الطرق إلا حوائط مسدودة لجـــأ إلـــى الله .. طالبا فقط الستر .. ويكفي ما فات .

بلغ المستشفى .. منذ عهد طويل لم يدخل المستشفى .. تقدم نحـو البناء الضخم وهو لا يزال يطلب الستر مستحييا أن يطلب أكثر .

طلعت عليه مبكرا روائـح كيميائيـة صـاخبة .. لعبـت بأنفـه وأعصابه .. استقبلته ممرات رنانة وسـلمته إلـى ممـرات أخـرى طويلة .. كل شيء أبيض غائم . الملابس والملاءات والجدران .. لـم يحاول أن يمسح عرقه ، لم يحاول أن يتنبه إذا كانـت علـى وجنتيـه دموع أم لا .. كان يسأل عن الدور ويجري ، رقم الغرفة ويتلفت باحثا عنها .. كل ما كان يراه يسبح في الضباب .. الرؤية واللون والسـمع والفهم واللمس والقبلات والدموع والحقيقة .. وقـبلهم جميعـا كانـت السلامة أيضًا ضبابية.

التقى بسيدات كثيرات يدخلن المستشفى وبطونهن منتفخـة والتقـى بأسر كثيرة خارجة تدفع أمامها في عربات صغيرة أو يحملون علـى أيديهم الأطفال الطازجين وقد تقرر أن يخرجوا للحياة .. الكل يجـري ليلحق بالحياة قبل أن تفر ..

تخلص من أفكاره وهو يطلب ويقرأ الأرقام التي تعثر في ضبطها ، ودخل غرفا بالخطأ عدة مرات واعتذر بلا اهتمام ، إلى أن بلغ حجـرة سلوى فإذا هي غائبة عن الوعي وفي الركن أمها وأختها والممرضـة وطبيب يفحص النبض ويعلق زجاجتين في إحداهما دم .. مؤكد دم .. ومثلث بلاستيك على أنفها .. الدموع في عيني الأم تنهمر بلا رحمة .. ولون سلوى شاحب تماما حتى ليصعب التعرف عليها .

طلب منه الطبيب البقاء في الخارج لحظات .. سقط علـــى أريكـــة بيضاء منهارا دون أن يتنبه أن الأريكة الأخـــرى عليهـــا عـــم فريـــد ومفرح .

نكس رأسه وخمن .. ما الذي يمكن أن يكون قد أصـــابها .. متـــى يخرج الطبيب ليعرف ؟ .. رأى الأرض لأول مرة مفروشـــة بـــبلاط أبيض وأسود وليس أبيض فقط كما تصور .. وأفاق على فريد ومفرح إلى جواره يربتان على ظهره .

– خيرًا إن شاء الله .. قل يا رب .

إنه لا يملك إلا أن يقول هذه الكلمة .. الكلمة الوحيدة المطمئنة فـــي هذا العالم العجيب .

خرج الطبيب وسأل :

– أين زوجها ؟

أشار عم فريد على شريف .. فقال الطبيب :

– أخطأت خطأ فادحا بموافقتك على الإجهاض .. كـــان عليـــك أن تكون أكثر حكمة .. ما دامت قد حملت لم يكن ثمة داع للإجهـــاض .. المفروض أن يكون المنع من البداية .. لا في منتصف الطريق .. أمـــا الآن .. فالله معها ومعكم .

مضى الطبيب كأنه ينسلخ من لحـــم شـــريف الـــذي ســـقط علـــى الأريكة .. إجهاض .. هل حملت ؟ ! .. ممن ؟ ! لا بـــد مـــن واوا .. واوا .

أنا الذي لم اهتم بعلاج نفسي حرصا على قلبها .. أطبقت يد علـــى صدره فلم يستطع أن يلتقط أنفاسه .. تنهد بلا جدوى ثم ســـقط مغشـــيا عليه .

أسرع مفرح إلى الطبيب الذي نقله فورا إلى غرفة خالية ، وصـــب الماء على وجهه وأعطاه حقنة .. تماسك بعدها شريف وشـــرع ينقـــل النظر الغائم بين فريد ومفرح .. كان صعبا مشهد الدموع التي انهمرت من عيني فريد .. دموع تكاد تنطق .. ولعلها أول دموع لهذا الرجـــل منذ أن خلق ..

يحب سلوى وشريف ويشفق عليهما ، ويسعده ذلك القدر من الرضا الذي يتحليان به .

أما مفرح فكان رجل يصلح لكل العصـــور الحرجـــة .. رجـــلا ذا أعصاب غير قابلة للتوتر .. كان بالطبع متـــأثر جـــدا لحالـــة ســـلوى وشريف وخاصة أن ما جرى لهما حدث يوم ميلاد ابنه شريف ، لكنـــه لم يتعود على البكاء ، ويبدو أن دموعه لا يحركها إلا البصل .

كان شريف يسبح في بحيرة من الطين كونتها الكارثة واستســـلمت لها زمجرته الداخلية وصمته وذهوله .. حاول الخوض في البحيرة فلم يستطع ببقايا عقله الواهن أن يتحرك من مكانه اليـــائس .. حـــاول أن يتذكر حتى بداية الأحداث وتفاصيلها .. فلم تسعفه الذاكرة المنهكة التي سحقتها خيول الضغينة والغضب .. لم تنجب مني بعد ســـبع ســـنوات وأنجبت من الغريب في دقيقة .. لم تنجب منـــي أنـــا الـــذي أحبهـــا ، وأنجبت من عربيد .. أصر على أن ينهض ويبـــرح الغرفـــة البلهـــاء ويذهب إلى سلوى .. اصطدمت به الممرضة وهي تخرج مســـرعة ..

ثم عادت بالطبيب ولحق به طبيب آخر ثم دوى صوت نسائي كسكين يعلن النهاية القاسية في عنف لا يرحم .. ودوى صوت نسائي آخر .

أسرع فريد ومفرح وشريف ..

لم يكن من حقها أن تغادره على هذا النحو المتعجل ودون الاتفاق على ذلك .. كيف تهجر الشخص الذي تعلق بها وما زال حتى بعد أن تعثرت في طريق مظلم ؟ !

انكفأ على السرير وقد أحس لأول مرة بالظلم .. هرب الضوء من عينيه .. وفرغ الطريق من تحت أقدامه .. إلى أين سيمضي بدونها وكيف تكون أيامه ؟ .. لقد جرب الفراق مع أمه وأبيه ، ما الذي يبقى منها أنيسًا في عزلته الأبدية ! . كل شيء يمضي على عجل .. هل قرر الله أن يضم السماء إلى الأرض وينهي اللعبة ؟ إذا كان الأمر كذلك فلا داعي للبكاء .

هيا أيها الموت .. أشياء كثيرة تنتظرك .. هل يا ترى أنت الذي تجذب إليك الأحياء أم أن فيهم ما يجذبك إليهم ؟ !

أيها الموت ليس لك مع سلوى دور .. هي التي فضلت الخلود على أن تعيش وحيدة ، وقد فقدت قدرتها على الحب والأمان ، حتى بين أحضاني .. العب لعبتك مع غيرها .. حاول مرة أن تختار زبائنك من ذوي الحول والقوة .

كانت وهم يحملونها تلوح له بقلبها ، وكان تابوتها يقطر على المشيعين حبا غير مرئي ، جعلها خفيفة توشك أن تطير .

سار وراءها مع السائرين يودعها بالأسى والتنهدات ودموع توقفت لتعد بالانتقام الرادع ، وبعد أن ساوره الشك في أن يحسم القضاء الأمر

يوما .. والشهور تمر والمحكمة بمن فيها من قضاة ومحامين ووكلاء نيابة يلوكون أحداثها المتحللة ، دون أن يتخذوا إجراء محددا إزاء ما جرى لنموذج مثالي من نماذج البراءة والطهر ، ولم تنفع كل المقالات التي كتبها منير البدري ، مرة متحدثا إلى الحكومة ومرة مستفزا أعضاء مجلس الشعب ومرات عاتبا على هذا البرود القضائي الذي يقتل أهل المجني عليه وأسماه العدل القاتل .

لعلها الآن وهي ماضية إلى الضفة الأخرى من نهر الحياة الأبدية تتساءل : من منا الذي مات ؟ .. وأنا نفسي حقا لا أعرف من منا الذي انتقل .

جلسوا في الصالة حول صورتها كأنهم في قاعة للبكاء ، كانت هناك المناديل الورقية والقطنية المعطرة والمرايا والذنوب والأردية السوداء وعبارات تقال بين الحين والحين تشجع على البكاء ، أولاً بوصفه حقا من حقوق أهل الميت وثانيا لأنه خلاص للنفس المعذبة والمحملة بالهموم ، وثالثا لأن البكاء في حقيقة الأمر بكاء على الروح الحية نفسها ورثاء لحالها ، ورابعا لأنه مفيد للعينين وخامسا لأن له قيمته في بيان مدى حزننا على القيم الغائبة والمثل الذاهبة والأصالة التي راحت .. سواء كان هذا الكلام صحيحًا أم ادعاء .

أضحت الشقة .. قاعة مأتمية تسبح في رغوة سوداء من الحزن المعتق .. شقة خانقة من تكدس الدموع والأسى وعفن الذكريات المهجورة والأماني المذبوحة .

هوت رهبة المكان بجبروتها عليه .. وحدها تهدده وتحاصره .. كان يجب أن أموت قبل هذا الوقت .. أنا الآن أتجاوز حدودي وأعيش مرحلة ما بعد السعادة وهذا معناه أنني لم أحسن التصرف .

لقد رحلت إلى الراحة الأبدية متخلصة من كل ما يربطها بهذا العالم الذي يحرص على الانتحار ، ويجدد مستمتعا في أساليبه ، بينما هو هنا محاصر بكل أسباب الوحشية في حياة بلا معنى ، لا يملك الفرار منها إلا بقرار ، ولن يستجيب له صاحب القرار مهما توسل أو تذلل لإنهاء عقده مع هذه الحياة .

ما الذي يجذبني إليها ؟ . ما الذي يجذبها إلى ؟ !

الناس تتعذب وهي لا تدري .. من الذي يتعين عليه أن يقول لهم أنهم يتعذبون وهم لا يحسون بما يجري ؟ . يجب أن يتشكل وفد من البشر ويرفعون عريضة إلى الله مطالبين بتغيرات جذرية في النظام البشري .. إنها كما يقال واحدة من الاثنين .. إما إن كان ما يجري من فعل البشر فأرجوا أن توقفه يا رب عند حده ، وأما أنه من فعلك وصنع يديك وهذا لا يتناسك مع قدرك .. وحاشاك أن تكون .. فارفع مقتك وغضبك عنا .

راح في نوم عميق .. كأنه في غيبوبة أو موت مؤقت..مجرد راحة جسدية بين عذاب وعذاب .. راح في نوم عميق.

* * *

في المستشفى حللوا الجنين الذي نزل ميتا .. تقدمت الممرضة من شريف وقالت له بصوت خفيض :

الدكتور يريدك في مكتبه .

ذهب إليه شريف وتبعته الممرضة ، لكن الطبيب طلب إليهما الخروج وقال لشريف طلبت مني تحليل عينة من الجنين وتمت مقارنتها بالعينة التي أخذت منك فوجدت أنها تشببها تماما في كل تراكيبها الكيماوية ، سأله شريف وهو مضطرب .. يسمع نتيجة امتحانه المصيري .

– وهذا يعني ؟

– يعني أنه ابنك .. من صلبك ومن دمك .

– أحقا يا دكتور ؟ !

– ولماذا أكذب عليك .. ومع ذلك هذا هو تقرير عينتك وتقرير عينة الجنين . أعرضهما على طبيب غيري .

ضرب جرسا فحضر الساعي وقال له : صور نسختين .

بعد لحظات عادت النسخ فأخذها شريف وهو لا يكاد يصدق من الفرح والحزن .. من السعادة والندم .. مضى من فوره إلى صديق صيدلي فقرأ له التقرير .. بالضبط كما أبلغه بفحواه طبيب المستشفى .

تولته الحيرة .. هل يرقص ويفرح ويهتف بأعلى صوته في الشارع .

– أنا رجل قادر على الإنجاب .. لقد أنجبت فعلا واغتالوه الكلاب .. أنا قادر .. أنا عادي .. أم يسكت ويأسى لرحيل سلوى التي كان عليها أن تتأني وألا تسرع بالإجهاض .. فيسعدا معا بالأمل الذي انتظراه سنوات طويلة .

مضى يتحدث إلى نفسه ويكرر كلام الصيدلي وكلام الدكتور .. يهمس إلى نفسه ويعيد الكلمات التي فكت شفرة التقرير وأعلنت قدرته

التي ظلت طي الظلم والسجن سنوات .. لم تر النور .. وآه لــو رأت النور من يوم تزوج .

لعلها كانت مؤامرة من كل الأطباء لكتم أنفاسه وحرمانه من السعادة الخارقة لكي يكون ناقصًا .. لم ينقصه لكي يكون أسعد مخلــوق إلا أن ينجب ، ها هي المسكينة رحلت قبل أن تغترف من السعادة وتتأكد من أن حبها له لم يكن عبثا ، وأنه لم يكن فقط قادرا على العبث الجنســي والشقاوة ، لكنه قادر أيضًا على تخليد هذا العبث وهذه الشــقاوة فــي صورة بشرية جميلة .

علا صوته تدريجيا وهو يعلن : اقرأوا التقرير .. لقد استلمته الآن فقط .. آخر تقرير عن ولدي الذي اغتالوه .. اقرأوا التقرير .. وقــف بعض المارة يحدقون فيه .. دنا منهم ومزق قطعة من التقرير وأعطاها لأحدهم .

: اقرأ التقرير لتطمئن بنفسك .

مزق قطعة أخرى وقدمها لآخر.

اقرأ بنفسك .. ربما تحسبني مجنونا أو كذابا.

مزق التقرير قطعا صغيرة ومضى يعطي كل من يقابله قطعة مــن شهادة التقرير التي منحت له وأثبتت قدرته على الخلق.

التف حوله خلق كثير واضطر أن يصعد فوق أحد الأعمدة ، يمسكه بذراع ويهتف بالذراع الأخرى .. يهتف بعزم مــا فيــه إلــى أن رأى سلوى على بعد ترفل في ثوب ملائكي فضفاض وشــفاف ، لا شــيء تحته وحولها بنات جميلات صغيرات يحملن ورودا ، نزل وأشار إليها كي تدنو منهم .. ابتسمت ولوحت .. ألح عليها أن تجيء.

ها هو التقرير .. تعالي لتقرئي بنفسك .. لقد قرأه الجميع .

جاءت إليه .. تلفتت في هدوء ودهشة نحو الجمع المحتشد ، وللطيور التي على رءوسهم كل ألوان البلاهة .. سألها شريف :

- أين كنت ؟

- كنت بالمحكمة

- المحكمة !

- نعم .. أخرجوني ليعيدوا سؤالي

- وماذا قلت لهم ؟

- نفس ما قلت من قبل

وما هو الذي قلته من قبل ؟

- لا أحد دنا مني .. أنا ما زلت أنا .. لم يدن مني غير زوجي

تحول إليهم : هل رأيتم ؟ .. هل رأيتم ! ألم أقل لكم . وأسرع يصعد العامود من جديد ، بينما مضت هي في سبيلها حتى اختفت وهو يصرخ بعزم ما فيه :

- لقد ظهر الحق .. لقد ظهر الحق.

سمع جرس الباب فنهض فزعا من نومه الثقيل ليفتح وما بين نبضة قلب ونبضة كل الرجال يكتمون أنفاسه .

* * *

(١٥)

في المساء جاء اللواء وأخرجوه له فضربه بعنف ومع كل ضــربة وعد ووعيد .. كان واضحا أن اللواء لم تعد لديه أعصاب للحوار وإن كان زورق غطرسته يهتز بنعومة وثقة في بحيرة سلطانه اللا نهائي .

– اسحب بلاغك أو يركب فوقك ستة وعشرون رجلا مــن هــذه العينة .. سوف نبدأ غدا في المساء .. اسحب بلاغك وإلا ستكون قادرا على الإنجاب بعد تسعة أيام لا تسعة أشهر.

ضربه المساعد الأول ضربا يحق به أن يكون المساعد الأول.

– اسحب بلاغك أو تخصب .. أنا قدرك وهذه إرادتي .. وحياتــك منحة مني فارفض إن شئت ..

تقدم منه المساعد الثاني وضربه ضربا حاول به أن يتفــوق علــى المساعد الأول .

ضربا متنوعا وجديدًا .. تحدث اللــواء بصــوت معــدني رنــان وقاس .. لم يكن شريف بين من سمعوه .. ورفض الثالث أن يضــربه لأنه حين حمله عن الأرض سقط منه وأمرهم الرئيس أن يبولوا فوقــه بولا طازجا .

لبس البشر النفايات وتباهوا بها ، خرج من بينهم العظمــاء الــذين غيروا وجه التاريخ فاحتضنوا الفئــران وتبــادلوا القــبلات ، تســللت أرواحهم على أطراف أصابعها وقد هدها الجوع فلم تجد غير الأحذية ، بينما صعدت الشفاه إلى الخفافيش والعناكب مشتاقة للظلام الرحــب ، ورائحته العفنة اللذيذة .. غضبت السماء على الأرض ، فاستلت قطعة من الشمس وألقتها على الأرض .. اشتعلت من فورها ، وطلع من بين

الرماد الخامد شريف بلا أثر لألم أو تشـوه ، محـاولا البحـث عـن سلوى .. لكن عبثا .

أخيرًا تقلبت فيه الحياة .. توجع وتحرك بـبطء شـديد ثـم عـاد فسكن .. تحرك وتألم وسكن حطامه من جديد .. أيتها الحياة كلما غبت عنك عدت إليك وعدت إلى .. ما الذي يجذبني إليك ؟ . ما الذي يجذبك إلى ؟ .

كان موثق اليدين إلى مؤخرته ووجهه مغموس في النفايات ، وكل شيء يبصق عليه ، وفوق ظهره تجـري عمليـات فئرانيـة فزعـة ومشبوهة .. وما زال يطوف به السؤال الذي لا أهمية له : من أين لهم كل هذه القمامة وهم في فقر ! ؟

في صباح اليوم التالي فتح عينيه على كمية كبيرة من القمامة ودلو من البول .. حين حاول أن يستدير اكتشف لأول مرة قسوة ما لقيه من عقاب ، فدهش لأنه لا زال حيا ، وليس لديه القدرة على تحريك عظمة من عظامه أو حاسة من حواسه بل ويكاد لا يسمع .. كان قبـل ذلـك يرى سطح الأرض غير المستوية كأنها أتربة غطى بها الزمن ما دفنه الإنسان من الحيوانات .. أسود وجمال وفيلة .

غرق في مستنقع من الموت المؤقت ، وكان معنى ذلك إنقاذه مـن ذاكرة بائسة لا تهدأ ، تعودت أن تلوك اللحظـات التعسـة بحساسـية مفرطة ، وتضعه أمام نفسه في مواجهة قاسية . وتضع نفسه بين فكين لا يرحمان .. الرغبة في الثأر وانعدام القدرة على الفعل .

كانت الريح تقذفه بالأتربة ، بينما يتسلل إلى جسـده توجـع مـن الأرض التي تهتز وتترجرج كأنها تركب عربة تجرى فوق الصخور .

خامره إحساس بأن الحفرة ستبتلعه .. لم يحرك ساكنا ، متمنيـــا أي نحو من التغيير وأي موضع آخر سيكون أفضل .. لم يستطع أن يفـــر من التذكر .

كان في زمن ما عدد من الأنذال مسئولين عن سجن المعارضـــين وتعذيبهم لحساب الحكومة أو لحساب أنفسهم .. أما الآن فقد أصبح كل صاحب مال وصاحب سلطان وكل قادر علـــى دفـــع أجـــرة المقـــاول يستطيع أن يغتال من يشاء ويعذب من يشاء ويدفن من يشاء ويغتصب من يشاء .. والناس كلها قادرة على أن تفعل ببعضها ما تشاء .. وهذه هي قيمة الحرية .. سأل نفسه : هل بدأ العد التنـــازلي الأخيـــر نحـــو الموت المنقذ ؟

كان لابد أن يجيء قبل ذلك .. لقد كان على أن أرحل – لو امتلكت الشجاعة – يوم رحلت سلوى .. فهل الفرصة هذه المرة مؤكدة ! ؟ .. آه .. لا يمكن أن تكون مؤكدة .

وتذكر في مرارة أن ستة وعشرين رجلا سيخصبونه .. الكلاب .. لابد أن يفعل شيئا .. أم أنه انتهى ، وأصبح ليس أكثر من قطنة مبتلة ، أغمض عينيه واستسلم لحالة يأس ثقيلة .. ساد سكون غير عادي ثـــم رفع رأسه فجأة حين سمع وهو غير مصـــدق غطيطـــين عـــاليين .. غطيطا منتظما وغطيطا آخر ينتظم حينا ثم يتقطع ثم ينـــتظم ، نهـــض بجذعه .. لم يجد أحدًا وقد تعود أن يراهما أمامه في الفراندة القريبة .. لعلهما سهرا أمس احتفاء باللواء واستعدادا لحفلة الليلة .. عاد يـــدرس الموقف .. هل هناك فرصة لعمل شيء ؟ هل هذا ممكـــن ؟ دق قلبـــه

وجرى الدم في عروق رأسه ونبح .. هو بحاجة إلى قطعة من الزجاج أو كبريت ليفك يديه .

لابد أن يفعل أي شيء .. أي شيء .. فهل يمكن للقمامة التي عاشرها أياما وليالي أن تقوم معه بدور ؟ القمامة التي مثلت له أقبح مصير يمكن أن ينتهي إليه إنسان .. هل يمكن أن تنتشله ؟

الإجهاض .. النزيف .. المستشفى .. واوا .. الذئاب .. الحرية .. شمعة والملط .. الظلام

عم فريد والقطط والكتاكيت التي في جيوب معطفه .. أليفة وعمارتها الثانية .. الناظر والسد العالي . التلاميذ .. التلاميذ .. الحفرة والمستقبل .. الإجهاض .. المستقبل بلا سلوى ، ورقة بيضاء مقدسة الوحل .. واوا .. واوا ، الباشا وعبد الناصر .. النزيف .. الضباب يهاجم الشمس .. واوا يهاجم الضباب .. الحرية في الظلام ، واوا في مسجد الرفاعي .. الفئران تأكل أوراق الشجرة .. فستان سلوى كالدانتيلا مثقوب مثقوب . ستة وعشرون رجلا .. ستة وعشرون فحلا يركبون أستاذ التاريخ في حفرة معاصرة يحرسها الشيطان .

ظل طيلة النهار تقريبا يحاول الفرار من تفكيره، تفكير قاس لا يرحم يصفعه بشدة .. يتصور منظره وهو راقد على بطنه ورجل في إثر رجل يمتطونه .. و .. و

لعن الهواجس وتقزز من إلحاحها .. رفض الصورة لكنها ألحت وتعجب كيف لا يملك القدرة على طرد صورة مقززة من رأسه .. حاول أن يهرب منها ليفكر في شيء آخر .. لكن ما هو الشيء الآخر

؟ .. ليس هناك شيء آخر غير حياة لها لون مختلف ربها اللواء وواوا الذي اعتدى على سلوى وعليه .

كل أنهار القهر تصب في بحر المذلة .. وكل بحار المذلة تصب فيه .

كلما حاول طرد الصورة حاصرته وتعقبته ومزقته ، سافر واوا إلى السويس واستلم سبعة كيلو جرامات من أحدث أنواع الهيروين .. كانت أول صفقة من هذا الصنف الغالي تدخل مصر .. وضع فيها الباشا تقريبًا معظم مكاسبه من الحشيش..عاد واوا ليلقى القبض عليه .. هذا ما قاله الحارسان .. أسرع الباشا إليه ليدله على مكان البضاعة .. قال واوا بكل بساطة ودهاء يحسده عليه الشيطان: أخرجني من هنا .. أسلمك البضاعة .

– نهار أبوك أسود .. وما علاقتي بما أنت فيه.

جملة واحدة لن أغيرها ولن أعيدها – يا أنور لا يصح .. لقد أغرقتك بالمال ولم أبخل .. لقد كنت حشرة وصرت في عهدي تلعب بآلاف الدولارات .

التفت واوا إلى جندي السجن وقال له :

– يا عسكري .. الزيارة انتهت ولا أريد زوارا بعد ذلك .

اختنق وجه اللواء وزعق وهو يدنو من واوا :

– سأقتلك يا كلب .. سأشرد أهلك .. سأفرم عظامهم ..

ابتسم واوا في سخرية وفتح صدره قائلاً : أنا ميت ميت..تفضل.

منذ ذلك اليوم لم ينم الباشا .. اتصل بكل المستويات .. دفع أكثر من مليون وتنازل عن أرض وعن نساء غير ما وعد به ، حتى ضاق صبره وفقد الثقة في الجميع وقرر أن يتصرف بنفسه .

في المساء جاء ستة وعشرون رجلا وأكبر باشا في البلد ، وكأنهم سيحاولون سرقة جبل المقطم .. مضوا إلى الداخل حيث أقام لهم الرئيس مأدبة على شرف الفريسة النبيلة .. إنه كما قال ليس شخصا عاديا .. إنه أستاذ تاريخ ، ولا بد أن يعامل معاملة تليق بدوره في تربية النشء وإعداد الأجيال .

لعلها أكبر مأدبة أعدها الرجل منذ بدأ عمله الجديد وهو هوايته المفضلة قبل وبعد أن ترك البوليس .

امتزج اللحم على المائدة بالخمر ، والمشهيات بالحشيش ، والحمام بالسجائر والضحكات بالجمبري ، والشتائم بأفخاذ الرومي والبط ، والشيء باللا شيء .. اجتمع أكبر الضباط بأعتى المجرمين في تفاهم وانسجام ، وكانت القطط على الأبواب تجلس مع الفئران والذباب والكلاب تنتظر الإذن بالمراجعة ..

وعدهم الباشا بوليمة أفضل بعد خروج واوا .. سيكون أستاذ التاريخ قد تملح في برميل خمر مغلق .. ساعتها نمدده أمامنا هنا وننزع ما في قلبه من غل .. وضج الجميع بالضحك .. كان ذلك بداية المرحلة الثانية من سهرة العمر .

تعالى ضجيج الطبل والزمل واحتدم الصخب المجنون

إلى أن وقف الباشا ، فتوقف الجميع وأمرهم أن يستعدوا .. ثم سأل :

– من الذي سيفض البكارة ؟

قالوا جميعا

– أنت طبعا يا باشا

هز رأسه وقال في حسم :

– لا .. لا يا بهائم أنا سـأتفرج وسـأعطي الـدرجات ، ضـحك الجميع .. وقال البعض :

– صح يا أستاذ

وأدرك أن الأمر ربما يتأخر إذا تركه للديمقراطية فقال :

– هيا يا مسعود

والتفت إلى هلالي :

– هل أنت مستعد يا هلالي ؟

– طبعا يا أستاذ

– باشا وحياة أمك

– طبعا يا باشا

أسرع هلالي وحمل آلة تصوير الفيديو وتبعه غالي بـالبروجيكتور وتأهل الجميع ليشاهدوا العرض الذي سيستمر حتـى الفجـر وربمـا يستكمل في الليلة القادمة .. دنا مسعود من هلالي قائلا :

– أريد أن تخرج لي فيلما رائعا .. تلف من حولي وتـدور . قـال هلالي على الفور :

– عينيه يا مسعود .. لكن لن يبدو منك غير مؤخرتك

ضحك عاليا كل من سمع .. ثم عاد البعض يتذكر ويضحك ، ونقل بعضهم الحوار إلى الباشا اللواء ، فضحك وانتشى سعيدا بخفـة ظـل رجاله .. استيقظت خفة دمه هو أيضًا فقال مشاركا في المضحكة :

– أنت اسم على مسمى يا مسعود .. سوف تبـدو مؤخرتـك فـي التليفزيون .

قهقه الجميع .. قهقهوا لسنوات قادمة لأن الذي يقول النكتـة هـو الباشا الذي استطرد

– وهذا حظ لا أظن أحدا ناله قبلك في تاريخ الشاشـة الصـغيرة وربما الكبيرة.

واصل الجميع الضحك ما عدا مسعود الذي اكتفى احتراما للباشـا بالابتسام مفتوح الفم ثم قال ليوزع السخرية عليهم :

– سيكون لهم جميعا نفس الحظ يا باشا

زعق اللواء ضاحكا :

– فعلا .. فعلا

كان هلالي صامتا مشغولا بفكرته ، يقلبها ذات اليمين وذات الشمال وداعبته ثقة تامة في النجاح والمكسب الخرافي ، إذا أمكنه تنفيذ العملية لحسابه بأن يطبع من الفيلم نسخا .. يحتـاج فقـط إلـى مزيـد مـن الإضاءة .. طلب على الفور من غالي البحث عن لمبـة ٤٠٠ شـمعة وتوصيلة.

حدد الباشا أسماء الأربعة الذين يتعين عليهم أن يجتـازوا طريـق مسعود .. وتقدم الجميع إلى منصة العرض وأسرع حـاملو الإضـاءة يقتربون من الحفرة التي تستقر في قاعها الفريسة ، ويطلقون الضـوء

عليها .. طلعت عليهم تلال القمامة ورائحتها البشعة .. تصور الجميع ذعر شريف مما سيحيق به فاختفى في القمامة .. مال أحدهم وسحب السلسلة فأسرعت إليه خاوية .. ذعر الجميع وهاج الباشا .. في ثوان أخرجوا كل القمامة .. لم يكن تحتها إلا وحل البول .

ثار الباشا بكل اللغات الحيوانية ، وتلاحقت قراراته في غضب إلى أن توقفت عند الأمر بربط الحارسين مكان أستاذ التاريخ ، وقف لحظات كأنه يبحث عن وسيلة جهنمية للانتقام من أي شيء ..

كانت كل بقعة في جسده تتدرن وتتتابع عليها الألوان من براكين الغضب الجوانية ، والرجال من حوله يتمنون في كل لحظة أن تتدخل أي قوة حتى لا يتمادى في جنونه، ولا يستبعدون أن يطلب إليهم الانتحار بستة وعشرين طريقة .. وكل فرد عليه أن ينتحر بطريقة مختلفة .. تذكر بعضهم الذئبين اللذين يربيهما الباشا في فيلته التي في الهرم .

صرخ فيهم : أنتم لا تعرفون ما الذي سيحدث لكم إذا لم يحضر هذا الصرصار خلال نصف ساعة على الأكثر ..

اختفى الجميع من أمامه ليمسحوا كل شبر في جبل المقطم بحثا عن شريف.

كان شريف منذ نصف ساعة يجري وهو لا يصدق كيف خلص نفسه .. معجزة سوف يحكيها لكل مخلوق .. ليته كان يعرف المكان أو الطريق لينتقم .. لقد ذهب للأسف معصوب العينين .. وها هو يعود جريا في الظلام يضرب في بيداء صخرية متسقة مع كل شيء .. لم يأكل لقمة من ثلاثة أيام وعاشر القمامة وأحط ما في الجسد الإنساني

والحيواني ، وضرب ضربا يكفي لقتله عدة مــرات .. وهــو لا زال يجري بحثا عن حياة غير حياة هم فيها .. وإن كان قد أصبح يشك أن هناك حياة ليس فيها أمثالهم .

* * *

(١٦)

بعد أن خرج من المستشفى .. لم يبق في البيت غير ليلة واحـــدة ، وعصر اليوم التالي ذهب يبحث عن شمعة

كان مستعدا أن يمضي في أي طريق يمكنه من الانتقام .. لا مـــن الباشا وحده ولا من واوا .. فلا معنى لهذا الانتقام .. المســألة بــدت أمامه أكبر وأعمق والساحة التي يلعب فيها الفساد لعبـــة بانوراميـــة .. طولها طول الوطن .. وعرضها عرضه

لابد أن تمتد الأيدي وتلتحم القلوب المحتشدة بالغضـــب وتمضـــي خلف العقول التي تؤرق أنوفها رائحـــة العفـــن ذي الألـــوان الناريـــة البراقة ..

لم يجد شمعة .. أنبأه أحد الأصدقاء أنهم قبضوا عليه في الفجـــر .. مضى على غير هدى تحمله قدماه من شارع إلى شارع .. يتحدث إلى نفسه وإلى الناس وإلى الله .

ذهب إلى منير البدري في جريدته .. لم يجده .. عاد فـــي نفـــس الشوارع التي كان يسير فيها مثقل الخطو بدا له المساء وقد احتل كـــل الأركان .. لكن الأضواء الشاحبة شرعت هي الأخـــرى تتفجـــر هنـــا وهناك وتتجدد الرغبة في المسيرة ..

في ميدان التحرير توقف وتأمل التمثال المهيب .. تخطى الســـور الشائك .. سار على الحشيش المبتل .. دنا من التمثال المهيـــب الـــذي كان صاحبه ينظر إلى أعلى .. تنهد وهو يحس بالخور والانهيـــار .. تهدل جسده إلى الأرض .. وضع رأسه تحت قدمي التمثال وتمـــدد .. ساد هدوء نسبي وسكينة وكان العالم ينتظر لغة أخرى .

كان الكون يرهف السمع .. ينتظر أن ينطق أحـــد بحـــرف وبـــأي لغة .

* * *

(١٧)

لم يكن شريف حتى هذه اللحظة يعرف أن واوا هرب من الســـجن وبدأ يعمل لحسابه الخاص ، لم يعجز عن اكتشاف الوسيلة التي تمنحه حق الوجود القوي ضد الباشا والسجن والسجان .. كان كل شيء يتهيأ لحياة جديدة ..

* * *